الخلفاء العبّاسيون الأوائل بين حقيقة العدل الإسلامي والتأثر بالنظام الملكي

الأستاذة:عثماني أم الخير
كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية-قسم التاريخ- جامعة خميس مليانة

مقدمة:

من بين القضايا التي تثير النقاش بين الحين والآخر بين الدّارسين للدّولة العبّاسيّة خاصة في عهودها الأولى، قضية وضع ومكانة أفراد البيت الهاشمي في المجتمع العبّاسي عامة وفي القصور خاصة، للوقوف على مدى عدالة خلفاء بني العبّاس الأوائل من جهة، ومن جهة أخرى حقيقة تطبيق شعار المساواة، الّذي رفعته الدّعوة العبّاسيّة للوصول إلى حكم الدّولة الإسلاميّة في ظلّ الأسرة العبّاسيّة الهاشميّة، الّتي وقف الكثير من المؤرّخين العرب والمستشرقين إزاءها بين مساند لعدلها، وآخر مشوّهٍ لصورتها، لعدم تطبيقها له، مستشهدين أحيانا بتلك الإمتيازات الممنوحة لأفراد الأسرة الهاشميّة من جهة، ومن جهة أخرى للموالي وخاصّة المقرّبين، ممّن كان الخلفاء قد اختلطوا بهم نسبًا، من فُرس وأتراك وغيرهم.

فما مكانة بني هاشم في قصورالخلفاء بين الخاصّة؟ وهل كانوا فعلا يلْقوْنَ معاملات تميّزهم عن غيرهم من خلفاء بني العبّاس الأوائل؟ وهل كانوا من عموم طبقة الخاصّة أم بطانة؟ ثمّ ما مكانتهم بين العامّة؟وماحقيقة العدل الذي طبّقه الخلفاء؟.

1- بنوهاشم ومكانتهم في المجتمع العبّاسي:

أولى الجاحظ اهتماما لبني هاشم[1]، بذكرإشارات عنهم، ذاكرا تواضعهم وإنصافهم لمن دونهم[2]، مؤهّلا للخلافة كلاًّ من العلويّين والعبّاسيّين، تبعًا لخصالهم المتشابهة، فبني هاشم تفْضُل عن غيرها من القبائل العربيّة بالنّبّوة، الّتي هي جِماع خِصال الخير وأعلاها وأفضلها وأجلّها وأسناها، ذاكرا ثلاثة منهم[3]، كلّ منهم سيّد؛ فقيه، عالم، عابد[4]، وذاك ما تفطّن له الخليفة المأمون سنة201هـ/817م، محاولا إرضاءهم بتولية عهد المسلمين من بعده لأحد الهاشميّين من ولد عليّ رضي الله عنه، وهو موسى آل الرّضا [5].

ويظهر أنّ الجاحظ مهّد بذكره لتلك الشّخصيّات من بني هاشم لوصول بني العبّاس إلى حكم الدّولة الإسلاميّة أمرٌعادٍ، فالعبّاس بن عبد المطّلب عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والعمّ وارث والعمّ أب[6]، وفي نفس الوقت تنبيه لوجود تنافس بين بيوتات بني هاشم للوصول إلى الخلافة، وأنّ أوّل هذا التّنافس كان اهتمامها بالتّناسل والإكثار من تعدادها لتكوين سند في المجتمع، ودليل ذلك تشكيكه في نتيجة إحصاء بني عليّ رضي الله عنه، الّذين أُحْصُوا منذ أعوام وحُصِّلوا، فكانوا قريبا من ألفين وثلاثمائة، ثمّ لا يزيدعدد نسائهم على رجالهم إلاّ دون العُشر[7].

ولعلّ فيما ذكره من خصال بني هاشم، وهي جامعة بين العبّاسيّين والعلويّين، ما من شأنه أن يكون أداة تقارب بينهم دون القبائل العربيّة الأخرى، خاصّة وأنّها فَخُرَت على سائر قريش بإطعامها للطّعام[8]، وشهد الأمويّون على ذلك، فإذا لم يكن الهاشمي جوادا، لم يُشْبِهْه قوْمُه[9]، ثمّ إنّ خصالهم هذه من شأنها خلق التّجانس مع باقي التّركيبات الاجتماعيّة، عربيّة كانت أو أعجميّة، إذ تَأخذ القدوة منهم.

ولعلّ أهمّ ما ركزّ عليه ضرورة تقبُّل الرّعيّة للخليفة من بني العبّاس أو العلويّين ماداموا كلّهم من بني هاشم، مركّزاعلى مواطن الوحدة بين فروع بني هاشم، الّتي تفخربقول الرّسول " نُقلت من الأصلاب الزّاكيّة إلى الأرحام الطّاهرة، وما افترقت فرقتان إلاّ كنتُ في خيرهما "[10]، مبينا سبب فوز بني العبّاس بالخلافة، المتمثّل في كثرة عددهم، دون تشكيك فيه.

ومنه اهتمامهم بزيادة نسلهم من أنّ عددهم أكثر من بني مروان، وكذا من العلويّين، فولد عليّ بن عبد الله[11] بن العبّاس اليوم، مثل جميع بني عبد شمس، وكذلك ولدُ الحسين بن عليّ بن أبي طالب، هذا مع قُرْب بلادهما "[12]، حتّى ذكر بعض المؤرّخين تعدادهم سنة200هـ/816م[13] بلغوا ثلاثة وثلاثين ألفا، ما بين ذكر وأنثى[14]، ويطنُب في ذكر مفاخربني العبّاس[15] بنُبْلِ الرّأي وصوابه، فمن مثل عبّاس بن عبد المطّلب وعبد الله بن العبّاس؟[16].

ب - خلفاء بني العبّاس الأوائل وعلاقتهم بالهاشميّين:

ركّزالجاحظ على وضع بني هاشم في عهد الخليفة أبي جعفرالمنصور[17]، ربّما لكونه المؤسّس الحقيقي للدّولة العبّاسيّة، وتكون سيرته، سيرةَ من يأتي بعده من الخلفاء، وفي إشارات الجاحظ تدليل على إكرامه، ليس فقط لأكابرهم؛ بل حتّى لفتيانهم، وأنّهم يدخلون دون إذن عليه رغم وجود الحُجّاب، بذكره لقصّة شاب هاشمي، رفض دعوة الخليفة أبي جعفرعلى الغذاء [18] وربّما في هذا تعويضهم عن

المعاملة السّيّئة، الّتي لقوْها بالمدينة المنوّرة؛ إذ كان بنوأميّة في الشّام لا يلتفتون إليهم، وإذا دخل الرّجل الهاشمي على الخليفة الأمويّ، أسمعه غليظَ الكلام[19] .

وتذكربعض المصادرالإسلاميّة أنّ الخليفة معاويّة بن أبي سفيان[20]، كان يدّعي أنّ بابه مفتوحا أمام الهاشميّين لاستيفاء حقوقهم التي لم يُقصِّرفي تأديّتها لهم، لكنّ الهاشميّين ينكرون ذلك عليه[21]، فردّ عليه ابن عبّاس[22] رضي الله عنهما بالنّفي، لما ادّعاه[23] معاوية من أنّه لم يهب بني هاشم حقوقهم المشروعة، وقيل: أنّه كان لايخصّهم بأعطيات[24] وسط القبائل، الّتي كان يجْزَلَ لها العطاء، بإخراج لكلّ قبيلة جوائزَها وأُعطياتها، ولم يُخرج لبني هاشم جائزةً ولاعطاءً.

وهذه التّفرقة واللاّعدالة الأمويّة السّوفيانيّة، الّتي تنبّه إليها عبد الله بن عبّاس، متسائلا " أين جوائزنا كما أجزْتَ غيرنا؟"ليكتشف أنّ جوائز بني أميّة للقبائل مرهونة بمبايعة الخليفة معاويّة ومنه الولاء للبيت الأموي " والله ما لكم عندي جائزة ولا عطاء حتّى يبايع صاحبُكم "[25].

ويكفيهم تشريفا من الخليفة أبي جعفرلهم، بذكراسم بني هاشم في وصاياه وخُطبه[26]؛ بل وأسمى مدينة بناها بالهاشميّة بنواحي الكوفة[27]، كما يرى الجاحظ غيابًا للآداب السّلطانيّة في قصرالخليفة المنصور، وعند قرابته الهاشميّين بدليل ردّ الفتى " قد تغديت "[28]، فكفّ الرّبيع بن يونس[29]عنه [30]، وهو ممّن يراهم الجاحظ، عالما بالآداب السّلطانيّة، دون معاقبته في حضرة الخليفة، فأمهله حتّى نهوضه للخروج، فلمّا كان من وراء السّتر، دفع في قِفَاه وفعل الحُجّاب مثله، حتّى أخرجوه من الدّار[31].

أبرز مدى التّماسك في البيت الهاشمي العبّاسي، من حيث يتحاموْن في دفع الظّلم عن أيّ فرد منهم، فعمومة الفتى شكوا الرّبيع على المنصور[32]، الّذي أبعد عنه مثل هذا الفعل، إلاّ وفي يده حُجّة[33]، لكنّ عدالة المنصور وسعيه لتقصّي الحقيقة والإنصاف، دفعه للاستفسارعمّا حدث بالضّبط، بسؤال الرّبيع أمامهم، فكانت إجابته، سرد ما حدث، مغتاظا من فعل الفتى الهاشمي الّذي لا يُقَوِّمه القول دون الفعل[34].

والحقيقة أنّ توقير بني هاشم، كان سيرة كلّ خلفاء بني العبّاس، بدءا بمنح الخليفة أبي جعفرللواحد من أعمامه العشرة ألف درهم[35]، وتلك السّيرة الّتي فضّل أن يتحلّى بها خلفاءه فكانت محتوى وصيّته لابنه المهدي[36] " وأوصيك بأهل بيتك، وأن تُظهر كرامتهم، وتُحْسن إليهم وتُقَدِّمهم، وتَوَطّئ النّاس أعقابهم، وتَوّليهم المنابر، فإنّ عزّك عزّهم وذكرهم لك "[37].

وهذا لا يعني أبدا منحهم حقوق غيرهم، أو تمييّزهم لدرجة الطّبقة، وهو ما يتوافق مع ماذكره البغدادي، الّذي أشار إلى وضعية الدّاخل إلى بغداد من أبوابها، فكان لا يدخل أحد من أعمام الخليفة المنصور ولا غيرهم، إلاّ راجلا، عدا داود بن عليّ عمّه، فإنّه كان منقرسًا، فكان يُحْمل[38]، ويبدو أنّ معاملة الخليفة المنصور لبني هاشم، لم تكن من باب تمييّزهم[39] عن باقي أفراد الرّعيّة[40]؛لأنّ ذلك سيُعدّ جُرْما في حقّ الآخرين.

فالمجتمع العبّاسي مُكوَّن من خليط؛ بل لوجود نقابة على ذوي الأنساب، وهي موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشّريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النّسب، ولا يساويهم في الشّرف[41]، وفي ذلك أيضا تخليد لسيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وكذا سيرة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين وضع الدّيوان[42]، فبدأ ببني هاشم وبني عبد المطّلب وبمن يليهم من قبائل قريش بطنا بعد بطن، حتّى استوفى جميع قريش[43].

ولم تتوقّف معاملة بني هاشم الحسنة عند الخليفة المنصور؛ بل استمرّت في عهد من خلفه حتّى أنّه في 170هـ/787م أمرالخليفة هارون الرّشيد[44] بسهم ذوي القربى، أن يُقَّسَّم في بني هاشم على السّواء[45]، وكان بعض مُرَبِّي أبنائه من الهاشميّين، فابنه القاسم، كان في حجر عبد الملك بن صالح الهاشمي[46] يربّيه[47]، كما أنّه أوصى مؤدّب ابنه محمّد الأمين بتعليمه كيف يُوَّقر مشايخهم "...أقرئْه القرآن وعرِّفه الآثار وروِّه الأشعار وعلِّمْه السُنن وبصِّره مواقع الكلام وبذاه وإمنعه الضحك إلاّ في أوقاته، وخُذْه بتعظيم مشايخ بني هاشم، إذا دخلوا إليه، ورفْع مجالس القوّاد، إذا حضروا مجلسه"[48].

يرى الجاحظ أنّ بني هاشم استغلوا مكانتهم في العهد العبّاسي الأوّل، بالتّدخّل في الحيلولة دون معاقبة الخليفة هارون الرّشيد لبعض قوّاده[49]، الّذين غضب عليهم وأمَربمقاطعتهم، كما حدث في حالة غضبه على عبد الله بن مالك الخزاعيّ، إذ أمرأهله وحشَمِه وجميع قرابته، أن يجتنبوا كلامه وخدمته ومعاطاته، حتّى أثّر ذلك في نفسه وبدنه، فتحاماه أقرب النّاس منه، من ولد وأهل، فلم يدْن منه أحد، ولم يلْطف به[50]، وهو ما يؤكّد قوّة الخليفة الرّشيد[51] وهيبته أمام رعيّته والمقرّبين منه، لحدّ أنّه لم يعص أحدٌ أمْره بالتّعامل مع هذا القائد.

وهذا ليس دليلا على تَصَدُرّالهاشميّين في قصرالخليفة هارون، فقد ذكرالبعض مدى حظْوة البرامكة[52] بتلك المنزلة، خاصّة جعفر البرمكي[53]، حتّى أنّه كان يُجْلسه على سريرالخلافة بجانبه وأجلس بني هاشم على الكراسي والوسائد دونه[54]، ويؤكّد

الجاحظ أنّ أحد الهاشميين محمّد بن إبراهيم، تدَّخل بالوساطة لأحد من الرّعيّة لدى الخليفة هارون الرّشيد، مُطَمئنا إيّاه بعدم نسيانه للمعروف الّذي كان قد تقدّم به إليه هذا المتظلّم " إنّ لك عندي يدا لا أنساها ومعروفا ما أكفُرُه وقد علمتُ ما تقدّم به أميرالمؤمنين في أمرك، وها أناذا بين يديك ونصْبَ عينيك "[55].

وإن كان في هذا التّدّخل محاولة لإصلاح ذات البيْن من جهة، فإنّه من جهة أخرى يعبّر عن مدى لاعدالة الهاشميّين، كون هذا الهاشمي يقدم مساعدة لهذا الرّجل مقابل معروف، كان قد تقدَّم به قبلا له، ويأخذ الخليفة بشهادته[56]، فهل كان هذا الهاشمي يُقْدم على مساعدة هذا الرّجل في شدّته لو لم يسبق بمعروف له سابق؟.

ويظهر من هذه الرواية ، نوع من الاستخفاف بعدل[57] الخليفة الرّشيد، وأنّ صفحه هذا كان تعاطفا مع الهاشمي، لئلا يقال:أنّ الخليفة الرّشيد رفض شهادة هاشمي، وهو ما قد يؤلِب عليه مشايخهم، كما يظهر لي أنّه يحاول الانتقاص من شأن الخليفة هارون، بحُجّة أنّه مُقربًا لبني هاشم أكثر من غيرهم، وهوما يشجع اللاعدل.

والحقيقة أنّه قد تناسى أنّ صفْح الخليفة عن عبد الله بن مالك هذا، كان بعد استيفاء حقيقة أمره، من أنّه مجرد وشاية به من أحد حسّاده، والدّليل ماذكره الهاشمي للخليفة ليقبل صفحه عن هذا الخصم بالبراءة من ولاية أمير المؤمنين، إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمْعه الله من عبد الله بن مالك أو أُطْلِع عليه أو همّ به أو أظمره أو أظهره[58].

وفي الوقت الّذي يقدّم براهينا على تأثر الخليفة هارون ببني هاشم في تطبيق العدل، يقدّم مثالا آخر ممثّلا في الخليفة المأمون[59]، الّذي يتّضح أنّه في عهده تجلّت صفات الملكيّة في الدّولة العبّاسيّة، بدءا من قصره والمعاملات حتّى على مستوى أسرته، لدرجة أنّ أحفاده مُنعوا من الجلوس إلى جانبه أثناء المرض، إذ سأل بعض بنيه الحاجب أن يُدخله عليه ليراه لمّا استمّر به الوجع، فرفض الحاجب مشيرا عليه بثقب الباب، فاطّلع عليه من ثقب في ذلك الباب، فجاء حتّى اطّلع عليه وتأمله، ثمّ انصرف[60].

والحقيقة أنّ هذا ليس دليلا كافيّا على إبعاد الخليفة المأمون لبني هاشم، كما أراد الجاحظ التّدليل عليه، لدرجة أنّه يمنع أولاده من رؤيته وهو مريضًا؛ بل هو تأكيد على نذالة بعض الحُجّاب في قصر الخليفة من جهة، ومن جهة أخرى يروي بعض المؤرّخين أنّ الخليفة المأمون كان يتجاوز عن بعض زلاّت بني هاشم، ويكتفي بالمعاتبة، شرط اعتراف المذنب بذنبه، كما جاء في ردّ بعض الهاشميّين الّذين أنّهم " يا أميرالمؤمنين، من

حَمَلَ مثل دالّتي ولبِس ثوب حُرْمَتي ومتّ بمثل قرابتي، أُغْتُفِرَ له من فوق زلّتي، قال: صدقتَ يا ابن عمِّي، وصفح عنه"[61].

ويبدو أنّه يريد بأدلّته هذه التّأكيد عن مدى تأثرتحول الحكم العبّاسي بأصول الحكم الفارسي، ومنه بداية فقدان بني هاشم لمكانتهم في قصورالخلفاء، إذ كان للخؤولة نفوذ منافس لهم، باعتبار أنّ الخليفة المأمون أمّه فارسيّة وأحد مشجعيّ الاعتزال[62]، لذلك يطابق بين رفض الحاجب لدخول أبناء الخليفة إلى أبيهم حالة مرضه، وأحد بنود حقوق الملك الفارسي الّذي من حقّه أن يعامله ابنه كما يعامله عبده، وأن لا يدخل مداخلة إلاّ عن إذنه، وأن يكون الحجّاب عليه أغلظ منه على من هو دونه، من بطانة الملك وخدمه، لئلا تحمله الدالّة على غير ميزان الحقّ[63].

2- الخلفاء العبّاسيون الأوائل والرّعيّة:

إنّ تعدّد التّركيبة المجتمعيّة في المجتمع العبّاسي، وتباين سلوكياتها بحسب أصولها وأديانها، أفرز مشكلة كبيرة في قضية من يحكمها وكم عدد خلفائها؟ هل واحد أم أكثر؟ ومن أيّ التركيبات هو؟ فالجاحظ لم يُجوِّز، أن يلِ أمرالمسلمين أكثرمن واحد[64]؛ لأنّ الحكّام والسّادة إذا تقاربت أقدارهم وتساوت غايتهم، قويت دواعيهم إلى طلب الاستعلاء واشتدّت منافستهم في الغلبة[65]، لكنّه يؤكد أنّ الخليفة المسلم بعيد عن ملّذات الدّنيا، الّتي قد تجعل المسلمين ينافسونه فيها؛ بل غايته إقامة دنيا على أساس ديني، فإذا كان القائم بأمور المسلمين بائن الأمر متفرّدا بالغاية من الفضل، كانت دواعي النّاس إلى مسابقته ومجاراته أقلّ[66].

لذلك يرى في وجود الخليفة للمجتمع الإسلامي ضرورة حتميّة، يقتضيها دافع المحافظة على استقرار أحوال المجتمع، فلولا السّلطان، لأكل النّاس بعضهم بعضا[67]، ويؤكّد على فكرة الأحاديّة في الحكم في أكثر من موضع، لدرجة أنّه يراها إلزاميّة، مرتبطة بأهمّ ميزة هي العدل لأنّ النّاس لا يصلحهم إلاّ رئيس واحد، يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوّهم ويمنع قويّهم عن ضعيفهم[68]، لذلك فمسألة وصول أحد إلى الخلافة أوالإمامة، يراها منوطة بالخاصّة أكثر من العامّة[69]، فهي لا تعرف معنى الإمامة وتأويل الخلافة، ولا تفصل بين فضل وجودها ونقص عدمها، ولأيّ شيئ ارتدّت، ولأيّ أمر أملت، وكيف مأتاها؟ والسّبيل إليها؟[70].

كما يظهر لي أنّ الخاصّة[71] تنوب عن العامّة[72] في اختيار الخليفة، فمقام العامّة من الخاصّة مقام جوارح الإنسان من الإنسان[73]، ومنه فهذا هو أفضل تعبير عن الأمّة، وفي ذلك سند من السّنّة النّبويّة، فقد كان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يُقَسِّم أحد أجزاء نهاره بينه وبين النّاس فكان يستعين بالخاصّة على العامّة، قائلا: " أبلغوا

حاجة من لا يستطيع إبلاغي؛ فإنّه مَن أبلغ من لا يستطيع، أمّنه الله يوم الفزع الأكبر"[74].

ولكنّنا نستشفّ ممّا حدّده الجاحظ، أنّ ثمّة علاقة قائمة بين الرّعيّة خاصّها وعامّها بالخليفة لأنّ العلاقة التآلفية بين الخاصّة والعامّة في المجتمع العبّاسي، تجعل للأولى حقّ التّفضّل على الثّانية بحقّ اختيار الخليفة، ربّما لأنّ أصل الخاصّة في المجتمع العبّاسي المسلم في الحقيقة هي من العامّة.

فقد لا يفهم من ذلك التّجاهل الكلّي لها في التّدخل في اختيارالخليفة أوالإمام، فقد ولّى المنصورعبدا يقال له: "طارق" على ضيعة من ضياعه بالشّام، فاستقضى على أهلها، فقدم منها قوم إلى المنصور، فشكوه، فقال: إنّما نقمتم عليه لما اخترته له وأحمدته عليه، قالوا: إنّه عبد وربّما صلّى بنا، قال: هو حرٌّ، فصلّوا خلفه[75]، ومنه فالخاصّة تنوب عنها في ذلك، وربّما في هذه الفكرة جذْبُ الشّيعة إلى فكرالاعتزال؛ بل فيه أيضا من الإشارة إلى وجود اندماج اجتماعي وانصهار بين مختلف التركيبات الاجتماعيّة، أو هو إدراك من الجاحظ للمشاكل التي تواجه المسلمين في ذلك الوقت[76].

ومن ثمّ، فهذه المؤشّرات ستجعل مبدأ الشّورى معمولا به في اختيار الخليفة دون مناقشة نسبه، هل هو من أحد بيوت العرب أو غيرها؟ ما يُفْهم منه أنّ الخليفة الّذي يريده الجاحظ، ليس العبّاسي الخالص أو أحدا بذاته[77]؛ بل ذاك الّذي يحمي الرّعيّة، ويسوسها كما يجب الأمر، وهو ما يتّفق مع ماذكره ابن خلدون[78].

وحددّ أهليّة الخليفة ليجعل مدّة حكمه مرهونة بخصال فيه وهي أربع، بأن لا يرضى لرعيتّه، إلاّ ما يرضاه لنفسه والأخرى أن لا يُسَوِّفَ عملا يخاف عافيته والأخرى أن يجعل وليّ عهده من ترضاه وتختاره رعيّته، لا من تهواه نفسه، والرّابعة[79] أن يفحص عن أسرار الرّعيّة فحْص المرضع عن منام رضيعها[80].

وهذا فيه من الإشارة إلى عدم رفض مبدأ توريث الخلافة، شرط أن يكون الخليفة المُوَرَّث له في مستوى تطلّعات الرّعيّة، أي تشارك الرّعيّة خاصّها وعامّها في اختيار الخليفة أوالإمام فقد قدّم الجاحظ إسقاطا من خلال مقارنة، لما قام به بعض خلفاء بني العبّاس الأوائل، لتطبيق أسس تحَكُم الرّاعي في الرّعيّة، خاصّة مسألة البحث عن الأسرار، وتقّصّي أخبار الرّعيّة لإدارة المُلْكِ بجديّة، مؤكّدا أنّ في ذلك التّدبير نفعٌ كبيرفي إبقاء الخلافة لأهلها، إذ لم تطل مدّة لملك عربيّ ولا عجميّ قطّ، إلاّ لمن فحص عن الأسرار، وبحث عن خفيّ الأخبار، حتّى يكون في أمر رعيّته على مثَلِ وضح النهار[81].

وفي ذلك إشارة إلى تفعيل أهميّة ديوان المظالم[82]، لأنّه منوط بالخليفة مباشرة؛ أي أنّ استقرار المجتمع يبدأ بإصلاح العاملين في أجهزة الدّولة ومسيّريها الإداريّين من

عمّال ولايات وكتّاب وجباة خراج وغيرهم، كما يرى حتميّة بحْث الخليفة عن أسرار رعيّته دون استثناء منه للهاشميّين، لاستقرار حُكمه من ناحية، واستكانة الرّعيّة إليه من ناحية أخرى، ويكون ذلك بالتميّيز بين أوليائه وأعدائه بالفحص عن أسرارهم ودقيق أخبارهم، حتّى إن أمكنه أن يعرف مبيت أحدهم ومُقيّله وما أحدث فيهما فَعَلَ، فإنّ الرّعيّة لا تُسْكِن قلوبها جلالة مُلْكه، حتّى يكون أشدّ إشرافا عليها وأكثر بحثا عن أسرارها، من أمّ الفريد عن حركته، وسكونه[83].

وتطالعنا المصادرالإسلاميّة بما كان من سياسة الخليفة أبي جعفرفي هذا الأمر، من ذلك ما أُثِرعنه في تتبّع أثار وزيره أبي أيوب المورياني[84]، الّذي رخُصت الأسعار في أيّامه فسوّلت له نفسه أن يشتري طعام سواد الكوفة والبصرة طامعا في الرّبح، فكتب المنصورعليه كتابا بذلك وقلّده الدّواوين، وكان يطالبه بالمال، وقتا بعد وقت[85].

ولم يتوان الخليفة أبو جعفر في تتبّع السُّعاة، لمعرفة حقيقة سِعاياتهم، في إطاربحثه عن سرائرهم، فلمّا سُعِي بأبي أيوب المورياني بالضّيعة الّتي اتخذها لصالح[86] وعرف أنّ أبا أيوب أخذ المال لنفسه[87]، عزم الخليفة على الخروج بنفسه إلى النّاحيّة ليعاينها وتبيَّنَ له كذبه فانصرف، ولم يقل شيئا إلى أن عاد إلى بغداد، فأوقع به وطولب بالمال، وقُتل هو وأخوه في 154هـ/771م، وأمربقتل بني أخيه، فقُتلوا [88].

كان الجاحظ معجبا بسياسة الخليفة أبي جعفرهذه[89]، فهي من ناحية تجسيد لسياسة ملك الّذي من أخلاقه البحث عن سرائرخاصّته وحامّته، وإذكاء العيون عليهم[90] وعلى الرّعيّة عامّة[91]، ومن ناحية أخرى تعكس دقّة مسؤوليّة الرّاعي على رعيّته[92]، دون أن تنفي صفة المُلك عنه، فإنّما سُميّ الملك راعيّا، ليفحص عن دقائق أمور الرّعيّة، وخفيّ نيّاتهم، ومتى غفل الملك عن فحص أسرار رعيّته والبحث عن أخبارها، فليس له من اسم الرّاعي إلاّ رسمه ومن المُلك إلاّ ذكره، فأمّا الملك السّعيد، فمن أخلاقه البحث عن كلّ خفيّ ودقيق، حتّى يعرفه معرفة نفسه عن نفسه[93]، وفي ذلك على مايبدو تنبيه إلى أسس إقامة العدل.

ولأجل إنجاح سياسته تلك، قدّم الأغراب في مراتب الدّولة، خاصة الفُرْس، لِما هو مطبوع في نفسه من التّيقّظ والسهر[94]، كما أنّ سياسة الخليفة المنصور، كانت مثار إعجاب الكثير من المؤرّخين، فقد ذكره صاحب تحفة الوزراء، بأنّه من بلغاء الخلفاء وذوي السيّاسة والتّدبير وكان يباشر الأمور بنفسه[95]، وبلغ الحدّ بتخوّفه من وُلاّة الأقاليم إلى درجة أنّه كان يذكي العيون عليهم، ويتدارك عزْلَهم من قبْل أن تُرَّسخ في

الإمارة أقدامهم[96]، ثمّ يستولي على ما يصل إليه من أموالهم[97]، ويجعله في بيت، سَمّاه بيت مال المظالم[98]، وهو ما رسم به مشروع سياسة الخليفة المهدي ابنه من بعده.

واتّضح ذاك في مدينته بغداد، الّتي أتمّ بنائها في سنة ستّ وأربعين ومائة هجريّة 146هـ/763م، وجعلها مدَّوَرَة، وجعل قصره في وسطها، لئلا يكونَ أحد أقرب إليه من الآخر[99] ولم يكفه ذلك؛ بل رسم لكلّ راغب في سكناها جهة منها، فخطّ لجنوده حول المدينة، وجعل أهل كلّ بلد من خراسان[100] في ناحية منها متفرّدة، وأمر النّاس بالبناء ووسّع عليهم في النّفقات[101] وفي ذلك تأكيد عن تميّزتلك السيّاسة، إذ كان أكثرالأمورعنده معرفة أحوال النّاس، حتى عرف الوليّ من العدوّ والمداجي من المسالم، فساس الرّعيّة، ولبِسها وهو من معرفتها على مثلِ وضحِ النّهار[102].

وسياسة المنصورهذه صارت مثلا احتذى به خلفاؤه، فانعكس ذلك إيجابا على سنِّي حُكْمِ الخليفة المهدي، التي كانت سِنّو سلامة[103]، وفي ذلك تطابق مع ما أشارإليه مؤلّف تحفة الوزراء، من أنّ الخليفة المهدي كان ممّن يباشرون الحكم بأنفسهم، فقد حُفظت خطبة له[104]، دلّت على حُسن سياسته الّتي رسم خطوطها الكبرى لمن جاء بعده من خلفاء وعلاقتهم بالرّعيّة.

ويبدو أنّ الأمر كان متعلّقا باستئثار الأموال دون الرّعيّة، مثلما فعل بعض خلفاء بني أميّة فقد ذكرالخليفة أبوجعفرأنّ عدم ردِّهم المظالم، كان سبب ذهاب مُلْكِهم، وأنّهم أهل مظالم، قد غمطوا النّعمة فهوى نجمهم وثُلَّ عرشهم[105]، حتّى كشفهم القدريّ غيلان[106] للنّاس وعليه وجب على الخلفاء العبّاسيّين تقديم البديل، لتستكين الرّعيّة إليهم، فيكون ذلك بتحقيق العدل[107] على أرض الواقع، خاصّة وأنّه[108] كان إحدى شعارات دعوتهم، فاستخرج المهدي حواصل أبيه من الذّهب والفضّة، الّتي كانت لا تُعّدُ ولا توصف كثرة[109]، ففرّقها في النّاس[110]، ولم يُعط أهله ومواليه منها؛ بل أجرى لهم أرزاقا بحسب كفايتهم من بيت المال، لكلّ واحد خمسمائة في الشّهر، غير الأُعطيات[111].

ويرى بعض المؤرّخين أنّ سبب محبّة الرّعيّة للخليفة المهدي، أنّه كان أوّل[112] من جلس للمظالم[113]؛ بل وهوالّذي أنشأ ديوانا للنّظرفيها أو الشّكاوى أوالدّعاوى، لمعرفة ما تشتكي منه الرّعيّة من ظُلم بعض ولاّتها وجورهم وعسفهم، وقد كان يغلب على هذا الدّيوان النّظر في غلاء الأسعار، إذا زاد عن حدّه، وفي كثرة إيداع النّاس السّجون من غير نظر دقيق في دعاويهم وأحيانا كان ينظر فيما وقع ظُلما من مصادرة أملاك بعض النّاس، زعما منهم بأنّ تلك المصادرة جاءت بغير حقّ[114].

ووافقه الرّأيّ المسعودي " كان المهدي محبّبًا إلى الخاصّ والعامّ، لأنّه افتتح أمره بالنّظر في المظالم والكفّ عن القتل وأمَّن الخائف وإنصاف المظلوم وبسط يده في الإعطاء، فأذْهب جميع ما خلّفه المنصور وهو ستّمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار، سوى ما جباه في أيّامه، حتّى تنازل خازن بيوت الأموال الفارغة عن مفاتيحها، ورمى بها بين يديه[115] فوُصف بالكريم على ماذكره الدّميري، جوادا، محبّبا إلى رعيّته، حسن الخُلق[116] والخَلق[117].

ويبدو أنّ الأوضاع الاقتصاديّة كانت مواتية لإنجاح سياسته، وهو ما لاحظه روم لاندو من مناصرة الخلفاء العبّاسيّين الأوّلين للزّراعة، فقد خفّض المنصور والمهدي والمأمون الضرائب المفروضة على الفلاّحين، وأقاموا أجهزة للريّ، وجفّفوا المستنقعات[118]، فعاد ذلك إيجابا على مقدار الأموال المجباة، ففرّق المهدي عشرين خادما في جباية الأموال، فوردت الأموال بعد أيّام قلائل، وقيل:إنّه فرّق في عشرة أيّام من صُلب ماله عشرة آلاف آلاف درهم[119].

وربّما هذا التّصرّف يبيّن أنّ الخليفة المهدي كان ملِكًا؛ لأنّ هذه الصّفة للملوك، فمن حقّ الملك تعَهُّد بطانته وخاصّته بجوائزهم وصلاتهم[120]، و يؤكّد أيضا على ما طبّقه الخليفة هارون وأخْذِه بطريقة الخليفة أبي جعفر في تدبير شؤون الرّعيّة والمحافظة على الخلافة، فكان أكثرهم بحثا عن أسرار رعيّته وأكثرهم لها عناية وأحزمهم فيها[121]، ودليل ذلك أنّه كان يعرف بكلّ ما يدور بين النّاس من الأحاديث والأخبار، من خلال تَخَفِيهِ في زيّ التّجار والطّواف بالأسواق مع جعفر البرمكي وزيره ومسرورخادمه، لاستطلاع ما لا يصل إليه من أمرالسّوقة والعوام[122].

وذكروا أنّه كان كثيرا ما يتلثّم، فيحضر مجالس العلماء بالعراق وهو لا يُعرَف، وكان قد قسّم الأيّام واللّيالي، فليلة للوزراء يذاكرهم أمورالنّاس ويشاورهم في المهمّ منها، وليلة للكُتّاب يحمل عليهم الدّواوين، يحاسبهم عمّا لزِم من أموال المسلمين، ويُرتّب لهم ما ظهر من صلاح أمور المسلمين[123] وبثّ العيون على الولاّة، فكان من ذلك أن وصلته أخبار عن عامله بخراسان الفضل بن يحي[124]، من أنّه يتشاغل بالصيد، وإدمان اللّذّات عن النظر في أمور الرّعيّة، فزجره أبوه[125]، فانعكست تلك بالخير، فخلّف الخليفة الرّشيد بعد موته من الميراث مالم يُخَلِّفه أحد من الخلفاء[126] من الجواهر والأثاث والأمتعة، سوى الضّياع والدّور، ما قيمته مائة ألف ألف دينار وخمسة وثلاثين ألف ألف دينار[127].

وكانت تلك السّياسة سيرة الخلفاء فيما بعد، خاصّة الخليفة المأمون، ما يؤكد التّواصل الّذي أشارإليه الجاحظ[128]، إذ وجد إبراهيم السّندي صاحب الأخبارزمن

المأمون رقاعا في طرقات بغداد، فيها شتم للخليفة وكلام قبيح، وتَهَدُدْ ووعيد، فكتب إلى الخليفة بذلك، فكان ردّه بضرورة تمزيقها، قبل أن ينظروا فيها[129].

لكن هناك جديد لهذه السيّاسة حسب تطوّرات المجتمع العبّاسي وقتها الدّينيّة، فالظّاهرأنّ آثارأصحاب التّشبيه وغيرهم، ممّن كانوا ينسبون أنفسهم لأهل السّنّة والجماعة، قد نضجت ثماره زمن الخليفة المأمون، فانتشرت أحاديث وأباطيل نُسبت للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وهذا تأكيد على شغف أهل بغداد بتعلُّم الحديث النّبوي.

لذلك رآى الخليفة أنّ سياسة الخلفاء قبْله، يجب أن يضيف إليها أساسا آخر من أسس إقامة العدل في الرّعيّة، بدراسة وضعيّة المجتمع الإسلامي، الّتي قد تخْلص فيما بعد إلى الرّدّة، ذلك أنّ أهمّ ركن في الدّين الإسلامي مهدّدا بالزّوال وهوالتّوحيد، لذلك رآى أنّ المرحلة تستدعي ضرورة إشراك الفقهاء والقضاة في تثبيت هذا المبدأ من جديد.

كتب الخليفة رسائلا وصفها الجاحظ بالدّليل على ما شاهده من مضمون رسالة الخليفة المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشّام، خبّر فيها عن عيب واحد وعن حالته وأموره الّتي خفيت[130]، أو أكثرها عن القريب والبعيد[131]، فتناول الكتاب أمرًا من الخليفة إليه بامتحان القضاة والمُحَدِّثين، وأمر بإشخاص جماعة منهم إلى الرّقّة[132]، ما يؤكّد أنّ مهمّة أجهزة الدّولة، ليس فقط توفير الحاجات الغذائيّة للرّعيّة وردّ المظالم؛ بل المحافظة على الدّين الإسلامي، عن طريق مراقبة التّوحيد، وهو ما استدعى ضرورة قيام الدّولة الدّينية، لا المدنيّة فقط، فالمقرّبون من الخليفة من الفقهاء، لا من سبقهم من البرامكة وغيرهم، خاصّة وأنّ المُحْدثين الجدد دسّوا للخالق صفاتًا سوّته مع البشر، عن طريق الإفراط في التّشبيه لاستمالة العامّة الّتي كانت لا تتدبّر فيما تتلّقى.

مؤكّدا أنّ صفة القِدَم إنفرد بها الله وحده، وما خلا الله فهو مخلوق، مشيرا إلى أنّ التّقدير في لغة العرب، يعني الخَلْقَ، وهو ما استغربه الجاحظ، لذلك كانت فكرة خلق القرآن هي مثار الجدل؛ بل وهي أداة تأكيد التّوحيد عند الرّعيّة، فكل الناس في نظر الخليفة غير مُوَّحد، ما لم يُقِر بأنّ القرآن مخلوق.

يبدو أنّ الجاحظ بذكره لشذرات من معالم حُكم الخلفاء السّابقين، قد قدّم كلّ منهم كأنموذج حُكْمِ رجل، يمكن أن يتكرّربسهولة، وربّما هذا التّتابع في سيرة الخلفاء، كان تفعيلا لسياسة الخليفة أبي جعفر، الّذي جعل الرّعيّة تستكين للخليفة؛ لأنّها كانت ترى أنّ خليفتها المنصور حيًّا روحا وغائبا جسدا، لذلك لم يدفعها ذلك لمناقشة مسألة عودة الخلافة إلى مبدإ الشورى.

لكنّ الجديد كان في عهد الخليفة المعتصم بالله[133]، الّذي توَّجَهُ الجاحظ كملك مثالي لامجرد خليفة واقعي، فذكر بعض المؤرّخين، أنّ المعتصم بالله وضع على رأسه تاجًا فيه الدُرُّاليتيم وهو أول خليفة تُوِّج[134] رغم ما وصفه به بعضهم، من أنّه كان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة[135]، وأكّد الجاحظ صلاحه[136] "جمع مع كرَم العروق وصلاح المنشأ، البُعد من إيثار الهوى"[137].

لم يذكرالخليفة المعتصم بالله ضمن سلسلة من ذكر من الخلفاء، واصفا إيّاه بالمعتصم بربِّ العالمين، الّذي حققّ الله به الدّين، وسدّد به الثّغور وردّ به المظالم[138] وحسَم به عِرْق البغيّ ونواجم الفتنة[139]، فجديد المعتصم هو تطبيقه للوصيّة[140]، الّتي تركها له الخليفة المأمون فكانت كمنهاج سارعليه، كتلك الّتي أوصى بها الخليفة أبوجعفرابنه المهدي وسارعليها بعده .

ونلاحظ أيضا أنّ الدّولة الإسلاميّة يحكمها شكلا الخليفة المعتصم، لكن باطنا الفقهاء والعلماء والقضاة، ليَحُلّوا محلّ أسرة البرامكة، كما يظهر مدى تأثير المعتزلي القاضي أحمد بن أبي دؤادة[141] في حكم المعتصم، ففي سنة220هـ/835م، حثّ الخليفة المعتصم بالله على ما فعل بالإمام أحمد بن حنبل[142]؛ لأنّه كان معتزليا، وكان الإمام سنّيّا.

ويبدو أنّه في عهد الخليفة المعتصم كانت المحاولة جادة للبرهنة على صواب أهل الاعتزال وفساد ما يذهب إليه أهل السّنّة والجماعة المُقلِّدون، وعليه فهُمْ في مقام العامّة والإمام ابن حنبل أحد قادتهم، الّذين وجب عليهم الارتداد عن ما يقولونه في مسألة كون القرآن مخلوقا ومنه فهذا كاف لتحويل الرّعيّة العامّة إلى الاعتزال، بتحويل هذا القائد، خاصّة وأنّ أهل بغداد أحسن رغبة في طلب الحديث[143].

الجاحظ يعتبر المناقشين في أمر الاستواء على العرش من أهل السّنّة، أنّهم المنافين للتّشبيه، ما يؤكّد أنّ أهل السّنّة والجماعة، ظهر فيها شبه انقسام بين مُعطِّل للتّشبيه، وواقف معه وهو ما يُسَهِّل عمل رجال المعتزلة في القضاء على مذهب السّنّة، وإحلال مذهب الاعتزال مكانه، لذلك لاحظ أنّ الّذين خالفوا في العرش، إنّما أرادوا نفي التّشبيه، فغلطوا[144].

أكّد على أنّ مسألة تحويل الرّعيّة عن مذهب السّنّة، اقتضت ضرورة امتحان أكبر قادتهم الإمام أحمد، لتأكيد ضعف حجّته، خاصّة وأنّه قال للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلّمين والقضاة:" امتحنتني، وأنت تعرف المحنة ومافيها من الفتنة ، امتحنتني من بين جميع هذه الأمّة "[145]، ويُبْعد تورّط الخليفة المعتصم في قضية

كهذه، مؤكّدا أنّ القرآن جسم وصوت ونظم وتقطيع وخَلْق قائم بنفسه، مستغن عن غيره وبعد فنحن لا نُكَفّر إلاّ من أوسعناه حجّة، ولم نمتحن إلاّ أهل التُّهمة [146].

كما أورد ردّ المعتصم عليه الّذي يبدو منه أنّه لم يفعل شيئا من عنده؛ بل طبّق ما أوصاه به أخوه الخليفة المأمون "وجدتُ الخليفة قبلي، قد حبسك وقيّدك وما شيئ أحبّ إليّ من السّتر ولا شيئ أولى بي من الأناة والرّفق، ومازال به رفيقا وإليه رقيقا[147]، وينفي الجاحظ أن يكون الخليفة المعتصم، قد ضرب الإمام أحمد[148]، وأنّه لم ير سيفا مشهورا، ولا ضُرب ضربًا كثيرا، ولا ضُرِب إلاّ بثلاثين سوطا[149] مقطوعة الثّمام، مُسبقة الأطراف[150].

أشارالجاحظ إلى أنّ طريقة الخليفة مع الإمام أحمد، جعلته يتراجع، ويُقرّبأنّ القرآن مخلوق ممّا يؤكّد أنّ الإمام أحمد كان مجرّد مُقلّد لآبائه في هذه المسألة، الّتي تتطلّب الحجّة والدّليل فأفصحَ بالإقرار مرارا[151]، ولا كان في مجلس ضيّق، ولا كانت حاله حالة مُؤْيِسَة، ولا كان مُثقلا بالحديد، ولا خُلع قلبه بشدّة الوعيد، ولقد كان ينازع بألين الكلام، ويجيب بأغلظ الجواب[152].

ويبدو تحيّزه إلى صفّ الخليفة المعتصم، ربّما لأنّه بفعله مع الإمام أحمد، قادر على تحويل العامّة إلى مذهب الاعتزال، وهناك تناقضا في ماذهب إليه، فلو كان الأمر كما حدث من لين فلماذا سُجِن الإمام أحمد؟ وهو ماذكره المؤرخون بإسهاب، فقد ذكر الدّميري:أنّ الإمام أحمد بن حنبل نوظر في الأيّام الثّلاثة، وأنّ المعتصم كان يخلو به، ويقول له : " ويحك يا أحمد، والله شفيق، وإنّني لأشفق عليك مثل شفقتي على ابني هارون- يعني الواثق- فأجبني فوالله، لئن أجبتني، لأطلقنّ غلّك بيدي "[153].

وإصرارالإمام على موقفه دفع الخليفة إلى محاولة إجباره بالقوّة على الإعتقاد بخلق القرآن ومخالفة سلفه "...فلم يزل كذلك حتّى ضجر، وطال المجلس، فعند ذلك، قال المعتصم: " عليك لعنة الله، لقد كنتُ طمعت فيك قبل هذا، خذوه، اخلعوه، اسحبوه، فأُخذ وسُحب، ثمّ خُلع، ليأُمر له بالسّياط[154].

3- الخلفاء العبّاسيّون الأوائل والحُجّاب:

اهتمّ خلفاء الدّولة العبّاسيّة بوظيفة الحاجب وشروط اختياره، حتّى يكون نقطة اتصال بين الخليفة ورعيّته، رغم تعدّد فئاتها وطبقاتها، فذكرالجاحظ سندها الدّيني[155]، فهذا الخليفة أبوجعفر يحدّد أهم صفات الحاجب، بأن لايكون جهولا ولا غبيّا ولا ذهولا ولا متشاغلا ولا خاملا ولا محتقرا ولا جهما ولا عبوسا[156]، ممّا يؤكّد مدى حساسيّة هذا المنصب في بقاء المُلك ومدى فاعليّته في إقرار العدل، خاصّة وأنّ للأعاجم رأي في ذلك، دليلا على تجربتهم[157].

وأُثر أقوال عن بعض خلفاء الدّولة العبّاسيّة الأوائل فيما أصدروه من أوامرلحجبتهم، ممّا يخصّ حُسْن معاملاتهم مع الرّعيّة، إذ قال موسى الهادي[158] لحاجبه: " لا تحجب النّاس عنّي فإنّ ذلك يزيل التّزكيّة، ولا تلْق إليّ أمرا إذا كشفته وجدته باطلا، فإنّ ذلك يونغ المملكة[159] وبنفس السّيرة كان الخليفة الرّشيد الّذي عهد إلى حاجبه أن لا يحبس عنه كتاب أحد قرُب أو بعُد[160] وقد أثبت الخليفة مدى اهتمامه بما يرفع إليه الحجّاب من كتب الرّعيّة والتّعرّف على مطالبها واحتياجاتها، الّتي لم تكن تخرج وقتها عن العمل والمسكن والرّاحة[161].

وعليه فما سبق ذكره يناقض ماذكره ابن خلدون[162] في أنّ مهمة الحاجب عند خلفاء الدّولة العبّاسيّة الأوائل، لم ترتبط فقط بمن لايأمنوهم على مُلكهم؛ بل شملت الكلّ؛ ربّما لأنّ القصد منها وقتها كان تنظيم الدّخول والخروج على الخليفة، لضمان وصول كلّ فئات المجتمع إليه ومنه تحقيق العدل، وهو ما أوصى به سهل بن هارون الفضل بن سهل[163]، وربّما شدّة الحجّاب لم تكن مقتصرة على الخلفاء؛ بل شملت وزرائهم كالبرامكة، فكان جعفرالبرمكي شديد الحجّاب حجب غلامه عنه الكثيرين، فكانت تصله رُقَعًا من بعضهم إليه، يشتكون من الّذين حالوا بينهم وبين الوصول إليه[164].

خاتمة

يتبيّن أنّ الخليفة فيه لايتنكّرلقبيلته، خاصّة وإن كانت قد لاقت المعاملات السيّئة ممّن حكموا قبلهم الدّولة الإسلاميّة، كبعض خلفاء بني أميّة في معاملاتهم لبني هاشم خاصة الفرع العبّاسي منه، فمكانة بني هاشم وبني العبّاس خاصّة في دولة العبّاسيّين في عصرها الأوّل، لم تخرج عن دائرة التّقدير والإحترام لهم، والالتفات إليهم بالتّقدير اتّباع لهدي الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ومنه فهم لم يكونوا بطانة بالمفهوم الملكي المعروف عند آل ساسان أو غيرهم؛ بل أخياريُؤخذ برأيهم ضمن آراء الغير إن حسُنَ.

أوجدت الدّولة العبّاسيّة تنظيمات لتحقيق عناصرالشدّ بينها وبين الرّعيّة، بعضها كان موجودا منذ العهد النّبويّ ومن جاء بعده من عهود وبعضها جديد، كديوان المظالم، دلالة على سعي خلفاء بني العبّاس الأوائل على إقامة العدل، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، لذلك فالجاحظ كان متتبّعا لأسس تطبيقه عند الخلفاء وعمّالهم، مشيرا إلى بعض التّجاوزات الّتي رآها أو سمع عنها، وبتوسّط مذهبه، رأيناه بمنطق الفيلسوف لا يرفض رفضا مطلقا حُكْم خليفة عبّاسي بعينه وإن كان مفتخرا بالخليفة المعتصم بالله؛ بل يُحبِّذ لوكان إلى جانب هؤلاء الخلفاء مستشارين من رجال المعتزلة، الّذين

جعلوا العدل أوّل أهدافهم، كونه أصلا من أصول فكرهم؛ ربّما لأنّ الخلفاء العبّاسيّين السّنّيّين، كانوا مقلّدين لسياسات سابقيهم.

العدل منوط تطبيقه بمراقبة العمّال والحُجّاب وغيرهم ممّن هو واسطة بين الخليفة والرّعيّة، كما يجب تفعيل ديوان المظالم وسلطته القضائيّة، على الأقل ليقف الخليفة على الوضع الحقيقي للمتظلّمين، حتى لو كان هؤلاء أبناء الخلفاء أنفسهم ومن البيت الهاشمي، كما في ذلك أيضا فرض للهيبة، وتخويف أولئك المتجبّرين الّذين يسعون بطريقة أو بأخرى لفرض سلطان آخر، من عرب أو فُرسٍ وغيرهم، فتطبيق العدل أيضا الوحيد المحقّق للاستقرار في المجتمع الإسلامي، مع مراعاة التّحقّق من حقيقة السِّعايات وأخلاق السُّعاة.

الهوامش:

(1)بنو هاشم، نسبة إلى هاشم أب عبد المطّلب، وهو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة بن خُزَيْمة بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معّد بن عدنان، وهاشم نسبة لهشم الثريد، وإطعامه. أنظر، ابن قتيبة الدّينوري(أبومحمّد عبد الله بن مسلم 213هـ-828م/276هـ-889م) : المعارف، حققه وقدّم له الدكتور ثروت عكاشة، الطّبعة الثّانية منقحة، دار المعارف، ص117.

(2)الجاحظ(عمرو بن بحربن محبوب ت255هـ): الحيوان، شرح وتعليق الدّكتور يحي الشّامّي، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ج6، ص383. يتّفق البيهقي مع ماذكره الجاحظ من خصال بني هاشم، فيقول:إنّ بني هاشم أطول النّاس باعا وأمجد النّاس أصلا وأحلم النّاس حلما وأكثر النّاس عطاء. أنظر، البيهقي(إبراهيم بن محمّد): المحاسن والمساوئ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج1، ص86.

(3)الثلاثة هم:عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم، عليّ بن الحسين بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم عليّ بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم". أنظر، الجاحظ: : رسائل الجاحظ(الرّسائل السّياسيّة)، قدّم لها وبوّبها الدّكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأخيرة2004م، ص106.

(4)نفسه.

(5)علي بن موسى الرّضا، أبو الحسن عليّ بن موسى الكاظم بن جعفر الصّادق بن محمّد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أحد الأئمة الاثني عشر في اعتقاد الإماميّة، ولد في يوم الجمعة 153هـ/770م بالمدينة، ولاّه الخليفة المأمون عهد المسلمين والخلافة من بعده ولقبّه الرّضا من آل محمّد وأمر جنده بطرح السّواد ولبْس ثياب الخُضْرة وكتب بذلك إلى الآفاق وتوفّي في شهر صفر202هـ/818م وصلّى عليه المأمون ودفن قرب قبر الرّشيد. أنظر، الطّبري: تاريخ الطّبري، م4، ص1837. أنظر، ابن خلّكان(أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمّد بن أبي بكر 608هـ/681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، حقّقه الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1414هـ/1994م، م3، ص ص270،269.

(6) الجاحظ: مصدر سابق، ص107.

(7)الجاحظ: نفس المصدر، ص108. في تشكيك الجاحظ، تنبيه إلى انتساب آخرين إلى البيت العلوي ولآل البيت.

(8)الجاحظ:البخلاء، وضع حواشيه محمّد عبد الكريم النمري، دارالكتاب الحديث، القاهرة، الكويت، الجزائر، الطّبعة الثّالثة 1426هـ / 2005م، ص102.

(9)الجاحظ: البيان والتّبيّين، دار إحياء التّراث العربي للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى،1430هـ/2009م، ج4، ص171.

(10)الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص425.

(11)عليّ بن عبد الله العبّاسي، أبو محمّد عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم الهاشمي وهو جدّ السّفاح والمنصور الخليفتّين، كان سيّدا شريفا، بليغا وهو أصغر ولد أبيه وأجمل قرشي، يدعى السّجّاد، ولد في اللّيلة الّتي قتل فيها الإمام عليّ بن أبي طالب وتوفّي سنة117هـ/735م بالحميمة وهو ابن الثمانين. إبن خلكان: وفيات الأعيان، م3، ص 247 وما بعدها.

(12)الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص425.

(13)الإحصاء تمّ في عام 198هـ-814م بطلبٍ من الخليفة المأمون. أنظر، ابن كثيرالقرشي الدّمشقي(الإمام الحافظ عماد الدّين أبي الفدا ت 701هـ/774م): البداية والنّهايّة، راجعه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمّد تامر، شريف محمّد، محمّد عبد العظيم، محمّد سعيد محمّد، دار الوّعي للنّشر والطّبع والتّوزيع، الجزائر، ج5، ص 623.

(14)الطّبري(أبوجعفرمحمّد بن جرير الطّبري 224هـ/310م):تاريخ الطّبري(تاريخ الأمم والملوك)، راجعه وقدّم له وأعدّ فهارسه نواف الجرّاح، دار ومكتبة الهلال، الطّبعة الأولى، م6، ص1833. أبو الفدا: كتاب المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج3، ص30. ابن عماد الحنبلي ابن عماد الحنبلي(أبو الفلاح عبد الحي ت1089هـ): شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى1399هـ/1989م، ج1، ص358. ابن خلكان: وفيات الأعيان، م3، ص269.

(15)ذهبت دراسة إلى أنّ الجاحظ أظهر ميوله في مؤلّفاته، وكان من أشدّ المدافعين، والمؤيّدين لسياسة الخلفاء العبّاسيّين ويذكر أخبارهم دون اعتراض أو نقد. أنظر، هياجنة(إيمان عبد الرّحمن): الجاحظ مؤرّخا، المشرف أد صالح درادكة، ماجستير، التّاريخ الإسلامي، كليّة الدّراسات العليا، الجامعة الأردنيّة، كانون الأوّل،1996م، ص92. إلا أنّي أرى عكس ذلك فالجاحظ لم يكن يهمه في كتاباته، إلا تقديم أمثلة لتوضيح الجاحظيّة، وكانت تلك النّماذج متواجدة كأمثلة من محيطه العبّاسي.

(16)الجاحظ: مصدر سابق، ص427.

(17)الخليفة أبو جعفر المنصور136هـ/754م-158هـ/775م، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس،أمه سلامة البربرية، ولد عام 95هـ/714م، أدرك جده ولم يروعنه وروى عن أبيه، أول خليفة قرّب المنجمين.أنظر، السّيوطي(الإمام الحافظ جلال الدّين عبد الرحمن بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء، خرّج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، الطّبعة الأولى،1426هـ/2005م، ص 205وما بعدها.

(18)الجاحظ:التّاج في أخلاق الملوك، تحقيق ونشر دار الفكر، بيروت لصاحبها إبراهيم الزّين1375هـ، دار البحار، بيروت، لبنان لصاحبها أديب عارف الزين،1955م، ص50.

(19)ابن الطّقطقي(محمّد بن علي بن طباطبا): الفخري في الآداب السّلطانية والدّول الإسلاميّة، عني بنشره محمّد توفيق الكتبي، الطّبعة الرّحمانية، ص18.

(20)معاويّة بن أبي سفيان، هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمّية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ الأموي، أسلم هو وأبوه يوم فتح مكّة، وشهد حنينا، حكم من 41هـ/661م إلى 60هـ/680م. أنظر، السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص164.

(21)ذكر أنّه اجتمع من بني هاشم جماعة عند معاويّة يوما، فقال لهم: يا بني هاشم، والله إنّ خيري لَمَمْنوح وإنّ بابي لكم لمفتوح، فلا يُقطع خيري عنكم علّة ولا يوصد بابي دونكم مسألة وإنّي نظرت في أمري وأمركم، فرأيت أمرا مختلفا، إنّكم ترون أنّكم أحّق بما في يدي منّي وإذا أعطيتكم عطيّة فيها قضاء حقوقكم، قلتم: أعطانا دون حقّنا وقصّر بنا عن قدرنا فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له، هذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم. أنظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، م3، ص62.

(22)إبن عبّاس، عبد الله بن عباس، حبرالأمة وفقيه، إمام التفسير، أبو العباس عبد الله، عم الرسول صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب، إسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي الهاشمي، المكنّي الأمير رضي الله عنه، ولد بشعب بني هاشم، عام 3هـ/624م، صحب النبي أزيد من ثلاثين شهرا وحدَّث عنه، أمه هي أم الفضل لُبابة بنت الحارث بن حزن بن يجبرالهلالية، دعى له الرسول"اللهم علمه تأويل القرآن" قيل:أنّه كان من القرآن بمنزل وكان يقوم على المنبر، فيقرأ سورة البقرة وآل عمران، فيفسرهما آية، آية، قال عنه عمر: ذلك فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول"، "لقد علِمتَ علما ما علمناه"، قيل:"هو ترجمان القرآن"، توفي عام68هـ/688م أو69هـ/689م.أنظر، الذهبي:سيّرأعلام النّبلاء،تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة 1405هـ/1985م، ج3، ص331وما بعدها.

(23)قال ابن عبّاس رضي الله عنهما لمعاويّة: أما والله، مامنحتنا شيئا حتّى سألناه ولا فتحت لنا بابا حتّى قرعناه ولئن قطعت عنّا خيرك، فالله أوسع خيرا منك ولئن أغلقت دوننا بابك، لنكفّن أنفسنا عنك وأمّا هذا المال، فليس لك منه، إلاّ ما لرجل واحد من المسلمين ولنا في كتاب الله حقّان، حقّ في الغنيمة وحقّ في الفيئ، فالغنيمة ماغلبنا عليه والفيئ ما احتسبناه ولولا حقّنا في هذا المال، لم يأتك منّا زائر، يحمله خفّ ولاحافر، كفاك، أم أزيدك؟. أنظر، ابن خلكان: المصدر السّابق، ص63.

(24)يذكر الماوردي"وتفضيل العطاء مفسّرا بالسّابقة في الإسلام وحُسْن الأثر في الدّين ورُوعي في التّفضيل عند إنقراض أهل السّوابق بالتّقدم في الشّجاعة والبلاء في الجهاد، لهذا حُكم ديوان الجيش في ابتداء وضعه على الدّعوة القريبة والتّرتيب الشّرعي". أنظر، الماوردي(أبو الحسين علي بن محمّد بن حبيب البصري البغدادي ت450هـ): كتاب الأحكام السّلطانيّة والولايات الدّينيّة، تحقيق سمير مصطفى رباب، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، لبنان، طبعة أخيرة، 2004م، ص223.

(25)ابن قتيبة الدّينوري(أبو محمّد بن عبد الله بن مسلم ولد213هـ-ت276هـ): الإمامة والسّياسة، تحقيق الأستاذ عليّ شيري، دار الأضواء للطّباعة والنّشروالتّوزيع، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى1410هـ-1990م، ج1، هامش رقم1، ص213.

(26)في الكتاب الّذي خرج به الرّبيع بن يونس من عند الخليفة أبي جعفر المنصور حال وفاته الخليفة، والّذي كان بمثابة عقد بولاية العهد، تكريم لبني هاشم، ووصيّة لخليفته"...من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف بعده من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامّة المسلمين...".أنظر، الطّبري: مصدر سابق، م5، ص1658.

(27)ابن الطقطقي:مصدر سابق، ص115.

(28)الجاحظ:التّاج، ص50.

(29)الرّبيع بن يونس، أبو الفضل الرّبيع بن يونس بن محمّد بن عبد الله بن أبي فروة واسمه كيسان، مولى الحارث الحفّار مولى عثمان بن عفّان رضيّ الله عنه، كان حاجب الخليفة المنصور، ثمّ وزر له، بعد أبي أيوب المورياني، أحد المقرّبين إلى الخليفة أبي جعفر، ومكين لديه، إذ أنّه مُقدّم على الموالي، توفّي عام 170هـ/787م. أنظر، ابن خلّكان: المصدر السّابق، م2، ص299. المدّور جميل نخلة المدّور: تاريخ العراق في عصر العبّاسيّين المسمّى حضارة الإسلام في دار السّلام، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، مصر، الطّبعة الأولى، 1423هـ/2003م، ص33.

(30)الجاحظ:مصدر سابق، ص50.

(31)نفسه.

(32)ربّما هذا ما يؤكّد تقديم الموالي في عهد الخليفة أبي جعفرعلى العرب وبني هاشم، للتيقّظ المطبوع في نفسه، لذلك يذكر المدّور"ومن المقرّبين إلى أبي جعفر، غير من لاقيته من الأمراء، المقدَّم ذكرهم على الموالي، وهم المُقَدَّمون في هذه الدّولة". أنظر، المدّور:تاريخ العراق في عصرالعبّاسيّين، ص33.

(33)الجاحظ:مصدر سابق، ص50.

(34)ذكر الجاحظ:"هذا الفتى يُسَلِّم من بعيد، وينصرف، فاستدناه أمير المؤمنين، حتّى يُسلِّم عليه من قريب، ثمّ أمره بالجلوس ثمّ تبذّل بفضيلة المرتبة، الّتي صيّره الله فيها، أنْ قال حين دعاه على طعامه: "قد فعلتُ وإذا ليس عنده لِمن أكل مع أمير المؤمنين. أنظر، الجاحظ: التّاج، ص ص50،51. بينما ذكر البيهقي أنّ الرواية تخصّ شخصا بعينه " وذكروا عن الرّبيع الحاجب، أنّ أميرالمؤمنين دعا محمّد بن عيسى بن عليّ إلى الغذاء، فقال: يا أمير المؤمنين، قد أكلتُ، فلمّا خرج أخذه الرّبيع وحمله على ظهر رجل وضربه، كما يضرب الصّبيان، فظنّ أهل بيته أنّ المنصور أمره بذلك، فخرج يبكي إلى أبيه، فجاء أبو عيسى بن عليّ، فخلع سيفه بين يدي المنصور وصاح، قائلا: ما أمرتُ بذلك، ولم يفعل الرّبيع ذلك، إلاّ لأمر فلمّا سأل الرّبيع عن ذلك، قال: أمرتُه أن يتغدّى معك، فقال: قد أكلتُ، وإنّما دعوتُه لتُشرفَه، وترفع منه، ولم ندْعُه لتُشبِعه فأدّبته، إذ لم يؤدّبه أبوه، فقال المنصور: أحسنْتَ، قد علمتُ أنّك، لا تخطئ. أنظر، البيهقي: المحاسن والمساوئ، ج1، ص 151.

(35)الطّبري: تاريخ الطّبري، م6، ص1647.المسعودي(أبو الحسين علي بن الحسين بن علي ت346هـ): مروج الذّهب ومعادن الجوهر، تقديم الدّكتور يوسف البقاعي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ج3، ص229.

(36)الخليفة المهدي، أبوعبد الله محمد بن منصور، ولد بأيذج عام127هـ/745م، أمه أم موسى بنت منصور الحميرية، جوادا، حسن الإعتقاد، تتبع الزنادقة وأمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين، ولى الخلافة من عام158هـ/775م مات عام169هـ/786م، قيل:مات مسموما.أنظر، السيوطي:تاريخ الخلفاء، ص ص214،215.

(37)الطّبري: مصدر سابق، م5، 1655. ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون الحضرمي المغربي ت808هـ): تاريخ ابن خلدون المسمّى بكتاب العبروديوان المبتدأ والخبر في أخبار العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، مؤسّسة جمال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، 1399هـ/1979م، م3، ص204.

(38)البغدادي(أحمد بن علي أبو بكر الخطيب): تاريخ بغداد، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، م1، ص77.

(39)يبدو أنّ الجاحظ يحاول الإثبات بأنّ الخليفة أبي جعفر المنصور لم يكن مجدّدا في علاقاته مع بني هاشم؛ بل كان فقط مقلّدا لما فعله ابن عبّاس رضي الله عنهما، ربّما تشبيها منه لما هي عليه العامّة، الّتي هي على مذهب أهل السّنّة والجماعة.

(40)كان الخليفة أبو جعفر المنصور يطلب من عمرو بن عبيد العظة، وربّما ذاك ما أثّر في عدالة الخليفة أبي جعفر. أنظر، المسعودي: مروج، ج3، ص219.

(41)ولاية النّقابة هذه تصحّ من إحدى ثلاث جهات، إمّا من جهة الخليفة المستولي على كلّ الأمور، وإمّا ممّن فوّض الخليفة إليه تدبير الأمور كوزير التّفويض وأمير الإقليم، وإمّا من نقيب عام الولاية أُستخلف نقيبا حاجب الولاية، فإذا أراد المولى، أن يوَلي الطالبيّين نقيبا، أو على العبّاسيّين نقيبا، تخيّر منهم أجّلّهم بيتا وأكثرهم فضلا وأجزلهم رأيّا، فيوّلي عليهم، لتجتمع فيه شروط الرّياسة والسيّاسة، فيسرعوا إلى طاعته برياسته وتستقيم أمورهم بسياسته، والنّقابة على ضربين؛ خاصّة وعامّة، فأمّا الخاصّة فهوأن يقتصر بنظره على مجرد النّقابة من غير تجاوز لها إلى حكم وإقامة حدّ، فلا يكون العلم معتبرا في شروطها ويلزمه في النّقابة على أهله من حقوق النّظر إثنا عشر حقّا: - حفظ أنسابهم من داخل فيها وليس منها أو خارج عنها وهو منها فيلزمه حفظ الخارج منها كما يلزمه حفظ الدّاخل فيها، ليكون النّسب محفوظا على صحّته، معزوّا على جهته.- تميز بطونهم ومعرفة أنسابهم، حتّى لا يخفى عليه منهم بسنوات ولا يتداخل نسب في نسب ويثبتهم في ديوانه على تميز نسبهم.- معرفة من وُلِد منهم، من ذكر أو أنثى، فيثبته ومعرفة من مات منهم، فيذكره حتّى لا يضيع نسب المولود، إن لم يتبنّه ولا يدّعي نسب الميّت غيره إن لم يذكره.-أن يأخذهم بالآداب بما يضاهي شرف أنسابهم وكرم محتدّهم، لتكون حشمتهم في النّفوس موفورة وحرمة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيهم محفوظة-أن ينزههم عن المكاسب الدّنيئة ويمنعهم من المطالب الخبيثة، حتّى لا يستقلّ منهم مُبتذل ولا يستصام منهم متذلّل.-أن يكفّهم عن ارتكاب المآثم ويمنعهم من إنتهاك المحارم، ليكونوا على الدّين الّذي نصروه أغْير وللمنكر الّذي أزالوه أنكر، حتّى لا ينطلق بذمِّهم لسان ولا يشنأهم إنسان. -أن يمنعهم من التّسلّط على العامّة، لشرفهم والتّسلّط عليهم لنسبهم، فيدعوهم ذلك على المقت والبغض ويبعثهم على المناكرة والبعد ويندبهم على استعطاف القلوب وتأليف النّفوس، ليكون الميل إليهم والقلوب إليهم أصفى.-أن يكون عونا لهم في استيفاء الحقوق حتّى لا يضعفوا عنها، وعونا عليهم في أخذ الحقوق منهم حتّى لا يمنعوا منها، ليصيروا بالمعونة منتصفين وبالمعونة عليهم منصفين، فإن عدل السّيرة فيهم انصافهم وانتصافهم.-أن ينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم العامّة في سهم ذوي القربى في الفيئ والغنيمة، الّذي لا يختصّ به أحدهم حتّى يقسّم بينهم بحسب ما أوجبه الله تعالى لهم.-أن يمنع أيّاماهم أن يتزوّجنّ إلاّ من الأكْفاء، لشرفهنّ على سائر النّساء صيانة لأنسابهنّ وتعظيما لحرمتهنّ، أن يزوجهنّ غير الولاّة أو ينكحهنّ غير الأكْفاء.-أن يقوم ذوي الهفوات منهم، فيما سوى الحدود بما لا يبلغ به حدّا ولا ينهر به دما، ويقبل ذو الهيئة منهم عثرته ويغفر بعد الوعظ زلّته.-مراعاة وقوفهم بحفظ أصولها وتنمية فروعها، وإذا لم يرد إليه جبايتها راعى الجباة لها فيما أخذوه وراعى قسمتها، إذا قسّموه وميّز المستحقّين لها إذا خصّت وراعى أوضاعهم فيها، إذا شرطت، حتّى لا يخرج منهم مستحقّ ولا يدخل فيها غير محقّ. أنظر، الماوردي(أبو الحسين علي بن محمّد بن حبيب البصري البغدادي ت450هـ): كتاب الأحكام السّلطانيّة والولايات الدّينيّة، تحقيق سمير مصطفى رباب، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، لبنان، طبعة أخيرة،2004م، ص ص115،114.

(42)الدّيوان، بالفارسيّة الدّفتر أو السّجل، وأطلقوا اسم الدّيوان على المكان، أو الدّائرة، الّتي يُحفظ فيها من باب المجاز. أنظر، د.صبحي صالح: النّظم الإسلاميّة (نشأتها وتطّورها)، دار العلم للملايين، بيروت،

لبنان، الطّبعة الأولى، جمادي الأولى1385هـ-أيلول1965م، ص312. كان الدّيوان موضوعا على دعوة العرب في ترتيب النّاس فيه، معتبرا بالنّسب وتفضيل العطاء، معتبرا بالسّابقة في الإسلام وحُسن الأثر في الدّين وروعي في التّفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتّقدّم في الشّجاعة والبلاء في الجهاد. أنظر، الماوردي:الأحكام السّلطانيّة، ص ص222،223.

(43)هارون الرّشيد، الخليفة هارون، أبو جعفر بن المهدي بن المنصور عبد الله بن محمّد بن علي بن عبد الله بن العبّاس أستخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادي، ربيع الأوّل عام170هـ/787م، كان يبغض المراء في الدّين والكلام في معارضة النّص، استمّرحكمه إلى عام 193هـ/809م. أنظر، السّيوطي:تاريخ الخلفاء، ص ص221،222.

(44)الماوردي:مصدر سابق، ص221.

(45)ابن كثير: البداية والنّهايّة، ج5، ص539.

(46)عبد الملك بن صالح، ذكر ابن خلكان ترجمة خفيفة له في ترجمته لجعفر البرمكي، هو عبد الملك بن صالح، عمّ الخليفة هارون الرّشيد. أنظر، ابن خلّكان: مصدر سابق، م1، ص342.

(47)ابن العبراني(محمّد بن علي بن محمّد ت580هـ): الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق وتقدّيم الدّكتور قاسم السّامرائي، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، مصر، الطّبعة الأولى ، 1419هـ/1999م، ص79.

(48)المسعودي: مروج الذّهب، ج3، ص254.

(49)يذكر بعض المؤرّخين أنّ الخليفة هارون الرّشيد يُقَدم في المشورة البرامكة أيضا، غضب عبد الملك بن صالح من كبراء بني هاشم، فقصد باب البرامكة، فقال له جعفر:أنت تقصدني، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي، وتحيط بها نعمتي، فأقضيها لك؟. أنظر، المدّور: المرجع السّابق، ص ص110،111. قيل: هوعبد الله بن مالك الخزاعي، أنظر، الجاحظ: التّاج، ص170.

(50)البرامكة، ينتسبون إلى برمك، كاهنا ببيت النار في بلخ، فارسيا، مجوسيا، أسلم الكثير منهم.أنظر، إبن طباطبا:تاريخ الدول الإسلامية، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان1380هـ/1960م، ص218.

(51)جعفر البرمكي، جعفر بن يحي البرمكي، أبو الفضل جعفر بن بَرمك بن خالد بن جاماس بن يشتاسف البرمكي وزير الخليفة هارون الرّشيد، فصيحا، فطنا، بليغا، كان أبوه، قد ضمّه إلى القاضي أبي يوسف الحنفي، حتّى علّمه الفقه، نكبه الخليفة مع أسرته. أنظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص328 وما بعدها.

(52)الجاحظ:التاج، ص170.

(53)يبدو الجاحظ متحاملا على الخليفة هارون الرّشيد، لإظهار مدى استخفافه بالعدل، ربّما لأنّه كان يمنع أهل الكلام من الكلام بينما الخليفة أبو جعفر، فكان يجلّ عمرو بن عبيد شيخ معتزلة بغداد ولوكان الخليفة هارون غير مطبّق للعدل ،لما نُقل عنه أنّه "حين استخلف الرّشيد وخرج إلى النّاس يبايعهم بوجه طلق ولسان سلِطْ، فبايعوه ببغداد وذلك يوم الخميس من المحرم سنة ثلاث وسبعين ومائة وتمّت له البيعة يوم الجمعة في المسجد الجامع، فلم يختلف عليه ولا كرِه خلافته مخلوق فأحسن السّيرة وأحْكم أمرالرّعيّة وكان أوْجه أهل بيته ولم يشبهه أحد من الخلفاء من أهله".أنظر، ابن قتيبة: الإمامة والسّياسة، تحقيق الأستاذ علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر، بيروت، لبنانن ط1،1410هـ-1999م، ج1، ص206.

(54)المدّور:مرجع سابق، ص110.

(55)الجاحظ:مصدر سابق، ص ص170،171.

(56)يريد الجاحظ التّأكيد بأنّ الخليفة هارون يأخذ في تطبيق العدل بانتماء الأفراد، ومُقدميهم، لا بأسّس العدل الحقيقيّة، لأنّ الرّشيد أطرق مليًّا، مفكّرا، وجعل محمّد، يلحظه، ووجهه يسفر، ويشرق، حتّى زال ما وجده، وكان قد حال لونه، حين دخل عليه، ثمّ رفع رأسه، فقال: أحسبُه صادقا يا محمّد، فمُرْهُ بالرّواح إلى الباب، قال: وأكون معه يا أمير المؤمنين، قال: نعم. أنظر، الجاحظ: مصدر سابق، ص171.

(57)المأمون، الخليفة عبد الله أبو العبّاس بن الرّشيد، ولد عام 170هـ/787م في منتصف ربيع الأوّل ليلة موت الخليفة الهادي أمّه اسمها مراجل، عرف بالحزم والحلم والدّهاء والرّأي، في عهده محنة خلق القرآن، كان أمّارا بالعدل، حكم من198هـ/814م-218هـ/833م، كان فقيه النّفس. أنظر، السيوطي:مصدرسابق، ص236.

(58)يركّز الجاحظ على العدل ،لأنّه أول مبادئ الاعتزال ، لذلك أورد كيفيّة تطبيقه عند بعض خلفاء بني العبّاس، وتذكربعض كتب التّاريخ، أنّ الملك العادل أنو شروان بنى أساس مُلكه على العدل، وعامل رعيّته بالإحسان والفضل ويكفيه قول سيّد الأواخر والأوائل:"وُلِدْتُ فِي زَمَنِ المَلِكِ العَادِلِ".أنظر، ابن عربشاه ت854هـ: فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظّرفاء، حققّه وعلّق عليه أيمن عبد الجابر البحيري، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، مصر، الطّبعة الأولى،1420هـ-2001م، ص496.

(59)الجاحظ: مصدر سابق، ص171.

(60)الإعتزال، هو القول والعمل بالعدل والتّوحيد، ويُلقب أصحابه بالقدريّة، إذ تؤمن المعتزلة بأنّ العبد قادر، خالق لأفعاله خيرها وشرّها مستحق على ما يفعله ثوابا وعقابا في الدّار الآخرة، والرّبّ منزّه، أن يُضاف إليه شرّ وظلم وفعل وكفر ومعصيّة، لأنّه لو خلق الظّلم، كان ظالما، كما لو خلق العدل، كان عادلا. أنظر، الشّهرستاني(أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم ت548هـ): الملل والنّحل، قدّم له وعلّق حواشيه الدكتور صلاح الدّين الهوّاري، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، طبعة2008م، ج1، ص ص58،59.

(61)الجاحظ: التاج، ص224.

(62)ابن عبد ربّه:العقد الفريد، ج2، ص157. الذّنب ليس بالضّرورة كبيرة، أو فاحشة، تُخرج من الإيمان إلى الإسلام، ومنه فالخليفة المأمون حسب فعل التّأنيب هذا، إنّما كان ناهيا عن المنكر، ليس فيه نصّ صريح بإ قامة حدّ.

(63)الجاحظ: التّاج، ص ص221،222.

(64)الجاحظ برأيه هذا، يريد إبعاد فتن مجتمعيّة، كان محورها السّلطة، كموقعة الجمل وموقعة صفّين، فالسّيف أكثر ما سُلّ فيه كان في قضيّة الحكم عامّة والخلافة خاصّة.

(65)الجاحظ: رسائل الجاحظ(الرّسائل الكلاميّة)كشّاف آثار الجاحظ، قدّم لها وبوّبها الدّكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال ،دار البحار، بيروت، لبنان، طبعة أخيرة،2004م، ص196. يبدوأنّ الجاحظ قد استنبط رأيه هذا من دراسته لولاية العهد عند بداية الخلافة العبّاسيّة، وماكان من أمر الخليفة أبي جعفر المنصور مع منافسيه بما فيهم عمّه.

(66)الجاحظ:نفس المصدر، ص196.

(67)الجاحظ: رسائل الجاحظ(الرّسائل الأدبيّة)، قدّم لها وبوّبها الدّكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأخيرة2004م، ص209.

(68)الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص99.

(69)طبقة الخاصّة خمسة أقسام :الخليفة، أهله، رجال دولته، أرباب البيوتات، توابع الخاصّة، أتباع الخاصّة: الجند، الأعوان، الموالي، الخدم. أنظر، جرجي زيدان:التّمدّن الإسلامي، تعليق الدكتور حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة، مصر، 1950م، ج5، ص26وما بعدها.

(70)يذكر جرجي زيدان عناصر طبقة العامّة، بما يشبه ماذكره الجاحظ ويُفصّل أكثر؛ بأنّها طبقتان، فيها أهل الحرف الرّاقيّة وتجّار السلع والأقمشة، وهي طبقتان، طبقة المقرّبون من الخاصّة، وهم الّذين يستظّلون بها، ويعيشون من عطاياهم، أو رواتبهم، أو يرتزقون من بيع سلعهم لهم، وهم أربع فئات، أهل الفنون الجميلة، من شعراء وأدباء وفقهاء وموسيقيين وتُجار وصُنّاع، أمّا الطّبقة الثّانية للعامّة، فيها الباعة وأهل الحرف والرّعاع، ومنهم الزّرّاع والرّعاع والعيار والشُطّار واللّصوص والصّعاليك والمخنُثّون .أنظر جرجي زيدان: نفس المرجع، ص38وما بعدها.

(71)الفكرة قريبة من مذهب الشّيعة في اختيار الإمام، ممّا يؤكّد توسّط مذهب الجاحظ، ويذهب النّوبختي إلى ما قرّرتهّ المعتزلة: أنّ الإمامة يستحقّها كلّ من كان قائما بالكتاب والسّنّة، فإذا اجتمع قرشي ونبطي، وهما قائمان بالكتاب والسّنّة، ولِّينا القرشي والإمامة لا تكون، إلاّ بإجماع الأمّة، واختيار ونظر. أنظر، النّوبختي(الحسن بن موسى) وسعد بن عبد الله القمّيذ: كتاب فرق الشّيعة، حقّقه وصحّح نصوصه وعلّق عليه وقدّم له بدراسة وافية الدكتور عبد المنعم الحفني، دار الرّشاد للطّبع والنّشر والتّوزيع، طبعة أولى، 1412هـ-1992م، ص23.

(72)الجاحظ: الرّسائل السيّاسيّة، ص307.

(73)يتّفق رأي الجاحظ مع ماذكره ابن عبد ربّه "السّلطان زمام الأمور ونظام الحقوق، وقوام الحدود والقطب، الّذي عليه مدار الدّنيا وهو حمى الله في بلاده، وظلّه الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم، وينتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم، ويأمن خائفهم قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم "عَدْلُ سَاعَةَ فِي حُكُومَةٍ خَيْرِ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةُ". أنظر، ابن عبد ربّه ابن عبد ربّه الأندلسي(أبو محمّد أحمد بن محمّد): العقد الفريد، شرحه وصحّحه وعنون موضوعاته ورتّب فهارسه أحمد أمين، أحمد الزّين، إبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، مصر، 1384هـ/1965م، ج1، ص7. ولابن تيميّة رأيّ، يشرح ما أشارإليه الجاحظ في العلاقة بين الحاكم والرّعّية، ممّا يؤكد توسّط مذهبه فالدّولة كما يتصوّرها كتاب السّياسة الشّرعيّة بين الرّاعي والرّعيّة، دولة تعاون وتعاضد، تستمدّ القوّة، الّتي تملكها والمشروعيّة، الّتي تطمح إليها، لا بالتماسها الطّاعة السلبيّة من جميع الأفراد، الّذين تتكوّن منهم؛ بل بالتماسها المشاركة الفعليّة في الحياة الجماعيّة المشتركة، فالحكّام والمحكومون بما يربط بينهم من عقدة البيعة، لا يسعهم، إلاّ أن يُقْسموا يمين الولاء والطّاعة لكلمة الله، وأن يعْقدوا شركة، تكون الشّريعة ميثاقها، ويكون تطبيقها الفعلي مقصدها الأسمى. أنظر، ابن تيميّة(أبو العبّاس أحمد): السيّاسة الشّرعيّة في إصلاح الرّاعيّ والرّعيّة، تقديم عبد السميع جبّاري، موفم1990م، مقدمة الكتاب، ص7.

(74). The Encyclopedia of islam ,leden,netherlands,1983,vol2,p385

(75)النّويري(شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب 677هـ/733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع كوتساتسوماس وشركاه، القاهرة، مصر، م1، ج2، ص14.

(76)البلاذري(الإمام أحمد بن يحي بن جابر ت279هـ/892م): جُمل من أنساب الأشراف، حققّه وقدّم له أ.د سهيل زكّاروالدكتور رياض الزركلي، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1417هـ/1996م، ج4، ص259.

(77)الجاحظ بفكرته هذه يجذب الخوارج إلى الاعتزال، إذ تتوافق الفكرة مع فكرهم في اختيار الحاكم، ليس العبّاسي، أو الهاشمي بالضّرورة؛ بل الّذي تتوفّر فيه مواصفات الحكم ولو كان عبدٌ أسودًا.

(78)"إعلم أنّ مصلحة الرّعيّة، ليست في ذاته وجسمه من حُسن شكله، وإنّما مصلحتهم فيه، من حيث إضافته إليهم، فإنّ الملك والسّلطان من الأمورالإضافيّة وهي نسبة بين منتسبين، فحقيقة السّلطان، أنّه المالك للرّعيّة، القائم في أمورهم عليهم فالسّلطان من له رعيّة، والرّعيّة من لها سلطان والصّفة الّتي له من حيث إضافته إليهم هي الّتي تُسمَّى الملَكَة، وهو كونه يملكهم، فإذا كانت هذه الملَكة وتوابعها من الجودة بمكان، حصل المقصود من السّلطان على أتّم الوجوه. أنظر، ابن خلدون : المقدّمة، دار القلم، بيروت، لبنان، الطّبعة السّابعة،1409ه/1989م، ص188.

(79)الجاحظ استقى فكرته من فعل الحاجب الرّبيع بن يونس عند وفاة الخليفة المنصور، كتم نبأ موته إلى الصّباح، عمّن كان معه في الحج، واستدعى عيسى بن عليّ عمّه وعيسى بن موسى وليّ العهد بعد المهدي وجماعة من القوّاد والأمراء، وتقدّم إليهم بأمره، فيما كان يزعم، أن يجدّدوا البيعة لابنه، من غير أن يعلّمهم بوفاته، فلم يتجرّأ أحد على مخالفته، ظنّا منهم أنّه صادر من الخليفة. أنظر، المدّور:العراق زمن العبّاسيّين، ص65.

(80)الجاحظ: التّاج، ص283. ربّما حاول الجاحظ بفكرته هذه تحميل بعض الخلفاء المسلمين، ما يحدث من فتن اجتماعيّة بسبب عدم تعيينهم خلفائهم في حياتهم لتحقيق الاستقرار قبل وفاتهم ولعلّ ذلك ما استقاه من دراسته لمشاكل المجتمع الأموي بعد وفاة الخليفة معاويّة بن أبي سفيان.

(81)نفسه. الجاحظ يتّفق في فكرته هذه مع ماذكره الجهشياري، من أنّ مسألة البحث عن الأسرار، تبدأ من التّعرّف على سيرة العمّال والكتّاب "وليس شيئ أفسد لسائر العمّآل والكتّاب، ولا أدْعى إلى خراب آماناتهم، وهلاك ما تحت أيديهم من جهالة الملِكِ وقلّة معرفته بحالاتهم، وترْكه مكافأة المحسن بإحسانه والمسيئ بإساءته، فأكثرالفحْصَ عن عمّال الخراج وسِيِّرهم وآثارهم، واختار لذلك العيون الموثوق بهم". أنظر، الجهشياري(أبو عبد الله محمّد بن عبدوس ت331ه/942م): كتاب الوزراء والكُتّاب، عُني بتصحيحه وتحقيقه ومراجعة أصله وصدّره بمقدمة وضع فهارسه، حضرة الأستاذ عبد الله إسماعيل الصّاوي، المكتبة العربيّة، بغداد لصاحبها نعمان الأعظمي، طُبع بمطبعة عبد الحميد أحمد حنفي بمصر، ص5.

(82)ديوان المظالم:هيئة قضائيّة عالية(محكمة استئناف حاليا)، ولذلك كانت سلطة صاحب المظالم أعلى بكثير من سلطة القاضي، هذه الهيئة موضوعة لإنصاف المظلومين، وإغاثة المستضعفين؛ أي تنظر في ظلامات النّاس، أيّا كان نوعها تُسند رياسة ديوان المظالم لرجل جليل القدر، كثير الورع، يُعرف باسم قاضي المظالم، موضوع لما عجزعنه القضاة وناظرالمظالم يقود المتظالمين إلى التّناصف بالرّهبة، وزجرالمتنازعين عند التّجاحد بالهيبة. أنظر، الماوردي:الأحكام السّلطانيّة، ص 94-262. مصطفى الرّافعي: الإسلام نظام إنساني، مراجعة الشّيخ حسن تميم، منشورات دارومكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط2، 1958م، ص178.

(83)الجاحظ: التّاج، ص ص282،281.

(84)أبو أيوب الموریاني، أبوأيوب سليمان بن أبي سليمان بن مخلد، وقيل:داود الموریاني الخوزي، الأهوازي، كاتب الخليفة أبي العبّاس السّفّاح، وبعده الخليفة أبي جعفر المنصور. أنظر، ابن خلّكان: وفيات الأعيان وأنباء أهل الزّمان، م2، ص41. ابن عبد ربّه:العقد الفريد، ج4، ص475.

(85)الجهشياري: مصدر سابق، ص ص83،82.

(86)صالح، هو ابن الخليفة هارون الرّشيد من زوجته نادر. أنظر، ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ص117. وقيل: أنّ أمّه اسمها رثم وهي أمّ ولد. أنظر، الطّبري:تاريخ الطّبري، ج5، ص1755.

(87)يرى ابن خلدون "أنّ العدوان على النّاس في أموالهم، ذاهب بآمالهم في تحصيلها، واكتسابها، لِما يرونه حينئذ من أنّ غايتها ومصيرها انتهاءها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها، وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السّعي. أنظر، ابن خلدون: المقدّمة، ص286.

(88)الجهشياري: مصدر سابق، ص ص84،85.

(89)ربّما إعجاب الجاحظ، مردّه إلى أهميّة رجال المعتزلة إلى جانب الخلفاء، فقد قيل: أنّ عمرو بن عبيد دخل إليه، فلمّا رآه أبو جعفرصافحه وأجلسه إلى جانبه، فتكلّم عمرو، فقال:يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك الدّنيا بأسرها، فاشتر نفسك من الله ببعضها، واعلم أنّ الله لا يرضى منك، إلاّ بالعدل في رعيّتك، ياأمير المؤمنين، إنّ من وراء بابك نيرانا تأجَجُ من الجوْر وما يُعمل من وراء بابك بكتاب الله ولا بسنّة رسول الله، يا أمير المؤمنين، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ...حتى أتى آخرالسّورة، ثمّ قال: ولِمن عمل والله بمثل عملهم، قالوا:فبكى أبو جعفر المنصور. أنظر، الدّينوري(أبوحنيفة أحمد بن داود ت282هـ): الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة الدكتور جمال الدّين الشيّال، وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، 1379هـ/1959م، ص384.

(90)يتّفق رأي الجاحظ مع ماذكره ابن الطّقطقي "الحازم من الملوك من يبعث العيون على نفسه، ويتفقّدها، حتّى لا يكون النّاس بعيبه أعلم منه لعيب نفسه". أنظر، ابن الطّقطقي: مصدر سابق، ص39.

(91)الجاحظ: التّاج، ص276.

(92)ذكر الطّبري نقلا عن غيره، أنّ الخليفة أبي جعفر كان شُغله في نهاره بالأمر بالمعروف والنّهي والولايات والعزْل، وشحْن الثغور والأطراف، وأمْن السّبُل، والنّظر في الخراج والنّفقات ومصلحة معاش النّاس، من ظلم من هو دونه. أنظر، الطّبري: تاريخ الطّبري، ج5، ص1642.

(93)الجاحظ: مصدر سابق، ص277.

(94)المدّور:العراق زمن العبّاسيّين، ص34 .

(95)الثّعالبي(أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن اسماعيل ت429هـ): تحفة الوزّراء، تحقيق حبيب علي الرّاوي، الدّكتورة إبتسام مرهون الصفار، دار الآفاق العربيّة، مدينة نصر، الطّبعة الأولى، 1420هـ/2000م، ص116.

(96)في سنة155هـ/772م عزل الخليفة المنصور محمّد بن سليمان بن عليّ عن إمرة الكوفة، فقيل:لأمور بلغته عنه في تعاطي منكرات وأمور، لا تليق بالعمّال. أنظر، ابن كثير:البدّاية والنّهاية ، ج5، ص492.

(97)الطّبري: تاريخ الطّبري، م6، ص1646. سياسة الخليفة أبو جعفرالّتي أوصى ابنه بتطبيقها، كالّتي أوصى أبرويز ابنه بتطبيقها"لا توَسعّن على جندك، فيستغنوا عنك ولا تُضيِّق عليهم، فيضجروا منك وأعطهم عطاء قصدا، وامنعهم منعا جميلا، ووسّع عليهم في الرّجاء ولا تُوَسّع عليهم في العطاء، ولمّا سمع المنصورهذا الكلام"، قال:هذا هو الرّأي، وهذا معنى قول القائل:" أجع كلبك يتبعك". أنظر، ابن الطّقطقي:مصدر سابق، ص ص38،39 .

(98)قال الخليفة أبوجعفر لوليّ عهده المهدي ابنه:"إنّي قد هيأت لك شيئا تُرضي به الخلق، ولا تغرم من مالك شيئا، فإذا أنا متُّ فأدع هؤلاء، الّذين أخذت منهم هذه الأموال، الّتي سمّيتها المظالم، فأردّد عليهم كل ما أُخذ منهم، فإنّك تُستحمد إليهم وإلى العامّة. أنظر، الطّبري: تاريخ الطّبري، م6، ص1646. وفي رواية ذكرها ابن الطّقطقي: قال لابنه المهدي: يا بنيّ، قد أفردتُ كل شيئ، أخذتُه من النّاس على وجه الجناية

والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا ولّيت أنت، فأعِده على أربابه، ليدعو لك النّاس، ويُحِبّوك. أنظر، ابن الطّقطقي: مصدرسابق، ص113.

(99)ابن الطّقطقي: نفس المصدر، ص116.

(100)خراسـان، كلمة مركبة من"خور"، أي الشمس، و"أسان"، أي "مشرق"، بلاد واسعة أول حدودها ما يلي العراق وتشمل على أمهات البلاد، نيسابور، هراة، مرو، فُتحت أكثرهذه البلاد عنوة وصلحا، تتقاسمها اليوم إيران الشرقية "نيسابور" وأفغانستان الشمالية "هراة، بلخ" ومقاطعة تركمنستان"مرو" حشد فيها أبومسلم ودعا للعباسيين، قضت جيوشه على حكم الخلافة الأموية. أنظر، ياقوت الحموي:معجم البلدان، مطبعة السعادة، مصر، ص ص82،81.

(101)أبو حنيفة الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص383.

(102)الجاحظ: التّاج، ص280.

(103)الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص420.

(104)محتوى الخطبة "أيّها النّاس أسِّروا مثلما تعلنون من طاعتنا، جَهَّدَّتْكم العافيّة، وتَحَّمَّدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطّاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى ثوب الإصرعنكم، وأهال عليكم السّلامة ولين المعيشة، من حيث أراه الله، مُقَّدِّمًا ذلك فَعْلَ من تَقَدَّمَه، والله لأُفنيَّن عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم". أنظر، ابن كثير: مصدر سابق، ج5، ص530.

(105)المدّور: العراق زمن العبّاسيّين، ص52.

(106)غيلان الدّمشقي، ابن مسلم الدّمشقي، القدّري الثّالث والمثل الأعلى للدّفاع عن عقيدته والثّبات في وجه بني أميّة، أختلف في اسمه، غيلان بن مسلم القبطي، وقيل: نبطي وقيل:ابن مسلم، أبو مروان، مولى عثمان بن عفّان، درس في المدينة على الحسن بن الحنفيّة، الّذي كان يعتنق الإرجاء، اشتهر بفصاحته. أنظر، ابن المرتضى(أحمد):طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة ديقلد قلزر، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1960م، ص25وما بعدها.

(107)يتّفق مع ما أوصى الخليفة أبو جعفر به المهدي:يا بنّي، لا تُبرم أمرا حتّى تُفكّر فيه، فإنّ فكرة العاقل مرآته، تُريه حسناته وسيّئاته واعلم أنّ الخليفة، لا يصلحه إلاّ التّقوى، والسّلطان لا يصلحه، إلا الطاعة، والرّعيّة لا يصلحها، إلاّ العدل، وأوْلى النّاس بالعفو، أقدرهم على العقوبة، وأنقص النّاس عدلا، من ظلم من هو دونه. أنظر، النّويري:نهاية الأرب م3 ، ج6، ص41.

(108)تأكيد الجاحظ على نجاح سياسة الخليفتين المنصوروالمهدي، منوط بتطبيق العدل، أحد أصول المعتزلة، تجلّى ذلك في قول الخليفة المنصورللمهدي: يا أبا عبد الله،...ولا تُعَمّر بمثل العدل ولا تدوم نعمة السّلطان، وطاعته، إلاّ بالمال، ولا تُقدّم في الحياطة بمثل نقل الأخبار، وأقدر الناس على العفو، أقدرهم على العقوبة، وأعجز النّاس من ظلم من هو دونه. أنظر، الطّبري : تاريخ الطّبري، ج5، ص1642.

(109)يرى بعضهم، أنّ الخليفة المنصور لم يكن هدفه جمع المال، وادِّخاره دون رعيّته، كما زعم الكثير؛ بل أمسك يده عن العطاء مخافة، أن يقع ماله في يدّ المتربّصين به والمخالفين، كما أنّه أقلّ من أعطيات الجند، ليأمن عصيانهم، واستغناءهم عنه. أنظر، المدّور:مرجع سابق، ص ص34،35.

(110)طبّق الخليفة المهدي محتوى وصيّة أبيه"...وإيّاك والأثرة والتّبديد لأموال الرّعيّة، وأشْحِن الثّغور، واضبط الأطراف وأمِّن السبيل، وسكِّنْ العامّة، وأدخل المرافق عليهم، وأرفع المكاره عنهم، وأعد الأموال، وأخزنها، وإيّاك والتبديد، فإنّ النوائب غير مأمونة، وهي من شيّم الزمان، وأعد الأكراع والرّجال والجند ما استطعت، وإيّاك، وتأجيل عمل اليوم إلى الغد فتتداول الأمور وتضيع، وخذ في أحكامم الأمور والنّازلات في

أوقاتها أولا، واجتهد وشمِّر فيها، وأعدّ رجالا بالليل ولا تضجر، ولا تكسل، واستعمل حسن الظّنّ، وأسئ الظّنّ بعمّالك وكُتّابك، وخذ نفسك بالتّيقّظ، وتفَقَد من يبيت على بابك وسهِّل إذنك للنّاس، وأنظر في أمر النّزاع إليك، ووَكِّلْ بهم عينا غير نائمة ونفسا غير ساهية، وإيّاك أن تنمّ، فإنّ أباك لم ينم، منذ وليّ الخلافة، ولا دخل عيناه الغمض، إلاّ وقلبه مستيقظ، هذه وصيّتي إليك، والله خليفتي عليك. أنظر، ابن خلدون: العبر، ج3، ص205 .

(111)ابن كثير:مصدر سابق، ص531. قال جعفر بن يحي:الخراج عماد الملوك، وما استغروا بمثل العدل، واستنذروا بمثل الخراج من الحول... أنظر، الأبشيهي(شهاب الدّين محمّد بن أحمد أبو الفتح): المستطرف في كل فنّ مظرف، شرحه ووضع هوامشه، الدكتور مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثانية،1423هـ/2002م، ج1، ص120.

(112)النّويري: نهاية الأرب، م3، ج6، ص270.

(113)والنّظر في المظالم قديم، كان الفرس يرون ذلك من قواعد المُلك وقوانين العدل، الّذي لا يعمّ الصلاح، إلاّ بمراعاته، ولا يتّم التّناصف، إلاّ بمباشرته، وكانوا ينتصبون لذلك بأنفسهم في أيّام معلومة، لا يُمنع عنهم من يقصدهم فيها من ذوي الحاجات وأرباب الضّرورات، وسبب تمسّكهم بذلك أنّ أصل قيام دولتهم ردّ المظالم. أنظر، النّويري:نفس المصدر، ص266.

(114)صالح(صبحي): النّظم الإسلاميّة (نشأتها وتطوّرها)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى،جمادي الأولى1385هـ/أيلول1965م، ص317.

(115)المسعودي:مروج الذّهب، ج3، ص227.

(116)يرى ابن عربشاه، أنّ من جملة حُسْنِ الخُلُقِ العدل والشّفقة على الرّعيّة والفضل، وإذا حَسُنَ خلق الملوك العليّة، صلُحَتْ بالضّرورة الرّعيّة، طائعة أو كارهة، وسعت في ميدان الطّاعة فارهة؛ فإنّ النّاس على دين ملوكهم، وسالكون على طّرائق ملوكهم. أنظر، ابن عربشاه: مصدر سابق، ص40.

(117)الدّميري(كمال الدّين بن محمّد بن موسى742هـ/808هـ): حياة الحيوان الكبرى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطّبعة الثّالثة1376هـ/1956م، ج1، ص94.

(118)روم لاندو: الإسلام والعرب، نقله إلى العربيّة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطّبعة السّادسة، 1947م، ص83.

(119)المسعودي:مصدر سابق، ص227.

(120)الجاحظ: التّاج، ص243.

(121)الجاحظ:نفس المصدر، ص280.

(122)المدّور:مرجع سابق، ص107.

(123)ابن قتيبة:الإمامة والسّياسة، ج1، ص210. إنّ هذه الفكرة محاولة للدّفاع عن الدّين الإسلامي ضدّ غيره من أهل الملل وغيرهم، وهو مايفهم منه التّنبيه إلى أنّهم كانوا يدافعون عن فهم معين للإسلام يتوافق مع مواقف سياسية وإجتماعيّة معينة. أنظر، w .m.watt ,the Political attitudes of the Mu'tazilah in j.R.A.S ,1963,p52-54 .

(124)الفضل بن يحي بن خالد بن برمك البرمكي، هو أبو العبّاس بن خالد ولاّه الخليفة هارون الرّشيد الوزارة قبل أخيه جعفر وجعل ولده محمّد في حجره، وقيل :أنّ جعفر لما كان عاملا بخرسان دخل بلخ واتّجه إلى معبد النّوبهار الّذي توجد به نار المجوس، فهدّم جزءا منه وبنى مكانه مسجدا. أنظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص27ومابعدها.

(125)جاء في كتاب يحي بن خالد البرمكي إلى الفضل ابنه" حفظك الله يا بني، وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين، ما أنت عليه من التّشاغل بالصّيد ومداومة اللّذّات عن النظر في أمور الرّعيّة، ما أنكره، فعاوِدْه ماهو أزين بك، فإنّه من عاد إلى ما يزينه ويشينه، لم يعرفه أهل دهره إلاّ به والسّلام. أنظر، المسعودي:مروج الذّهب، ج3، ص266.

(126)أخذ الخليفة هارون الرّشيد من البرامكة ضياعهم وأموالهم ومتاعهم، فوجد لهم ممّا حباهم به اثني عشر ألف ألف، ووجد من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستّمائة ألف وستّة وسبعين ألفا، وأمّا غيرالأموال من الضّياع والغلاّت والأواني، فشيئ لا يوصف أقصاه، ولا يُعرف أيسره. أنظر، ابن عماد الحنبلي: شذرات الذّهب، م1، ج1، ص315.

(127)ابن كثير: مصدر سابق، ص598.

(128)الجاحظ: التّاج، ص279. يذكر النّويري أنّ الخليفة المأمون، كان يجلس للمظالم يوم الأحد. أنظر، النّويري: نهاية الأرب، م3، ج6، ص276. وذكر ابن كثير"وكان المأمون يقصد العدل، ويتولّى بنفسه الحكم بين النّاس والفصل". أنظر، ابن كثير: مصدر سابق، ص653.

(129)ابن طيفور(فضل أحمد بن أبي طاهر ت280هـ): كتاب بغداد(المستوعب لفترة خلافة المأمون)، دار الجنان، ش.م.م، بيروت، لبنان، ص653.

(130)الخطأ الي ارتكبه الخليفة المأمون هوالكشف عن نِحلته، قال ثمامة:كان المأمون قد همّ بلعن معاوية وأن يكتب بذلك كتابا في الطّعن عليه، قال: فنهاه عن ذلك يحي بن أكثم وقال:يا أمير المؤمنين، العامّة لا تحتمل هذا ولا سيّما أهل خراسان ولا تأمن من أن يكون لهم نفرة ونبْوة، لا تُستقال ولا يدرى ما يكون عاقبتها والرّأي أن تدّع النّاس على ماهم عليه ولا تُظهر لهم أنّك تميل إلى فرقة من الفِرق، فإنّ ذلك أصلح في السيّاسة وآمن في العاقبة وأجرى في التّدبير، فركن إلى قوله. أنظر، البيهقي: المحاسن والمساوئ،ج1، ص135.

(131)الجاحظ:التّاج، ص280.

(132)الرّقّة، الأرض الّتي ينصّب عنها الماء، وهي جمع رقاق، مدينة مشهورة على الفرات من جانبها الشّرقي، بينها وبين حرّان ثلاثة أيّام، وهي أيضا البستان المقابل لدار الخلافة ببغداد. أنظر، البغدادي (صفيّ الدّين عبد المومن بن عبد الحقّ ت739هـ): مراصد الإطّلاع على أسماء الأماكن والبقاع وهو مختصر معجم البلدان لياقوت، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، 1373هـ/1954م، ج3، ص626.

(133)المعتصم، الخليفة أبو إسحاق محمّد بن الرّشيد، ولد عام 178هـ/794م، أمّه ماردة، امتحن العلماء في خلق القرآن، يقال له: المثمّن، حكم من 218هـ/227هـ-739م/748م بعد المأمون، سلك مسلكه من امتحان النّاس بخلق القرآن، وقتل خلقا كثيرا. أنظر، السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ص253،254.

(134)ابن العبراني:مصدر سابق، ص104.

(135)السّيوطي:تاريخ الخلفاء، ص253.

(136)قال بعض المؤرّخين:"وكان المعتصم شهما، شجاعا، عاقلا، مُفَوّهًا، ولم يكن في خلفاء بني العبّاس أمّيّ غيره؛ بل كان يكتب خطاً ضعيفا، وكان سبب ذلك، أنّه رآى جنازة لبعض الخدم، فقال: ليتني مثله، لأتخلص من الكُتّاب. أنظر، القيرواني: زهر الأداب، ج2، ص785. كما استخّف بعض المؤرّخين بحكم الخليفة المعتصم، فابن طباطبا، ذكر" أنّ أوّل وزراء المعتصم كاتبه قبل الخلافة الفضل بن مروان ، كان

عاميًّا، لا علم عنده، ولا معرفة، وكان رديئ السّيرة، جهولا بالأمور. أنظر، ابن الطّقطقي: مصدر سابق، ص171.

(137)الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص221.

(138)من بين ما فعله لردّ المظالم المعتصم، أنّه انتقل من بغداد، وكان السبب في ذلك أنّ أهلها كرهوه، وتأذّوا بجواره، حين كثر عبيده الأتراك وغيرهم من الأعاجم، لِما كانوا يلْقون منهم ومن غلظتهم، وربّما وثبت العامّة على بعضهم، فقتلوه لصدمهم إيّاهم في حال ركضهم، فأحبّ التنّحي بهم والإنفراد عن مدينة السّلام. أنظر، المسعودي : التّنبيه والإشراف، طبع في مدينة ليدن المحروسة ، مطبعة أبريل، 1893م، ص355.

(139)الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص220.

(140)نص الوصيّة "وقد كان أوصى المأمون إلى أخيه أبي إسحاق المعتصم، وكتب في وصيّته...وأوصاه بعبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم وأحمد بن أبي دؤادة القاضي، وقال:شاوره في أمورك كلّها، ولا تفارقه، وحذّره من يحي بن أكثم ونهاه عنه، وذمّه وقال:خانني، ونفّر النّاس منّي، ففارقته غير راض عنه، ثمّ أوصاه بالعلويّين خيرا، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأن يصلهم بصلاتهم في كل سنة. أنظر، ابن كثير:مصدر سابق، ص656.

(141)أحمد بن أبي دؤادة247هـ/251هـ -861م/865م، القاضي أبوعبد الله أحمد بن فرج بن حريزالإيّادي البصري البغدادي الجهمي عدو أحمد بن حنبل، كان داعيّة إلى خلق القرآن، له كرم وسخاء وأدب، ولد عام 160هـ/777م بالبصرة، شاعرا مجيدا، فصيحا، مات هو وولده منكوبين، عام 240هـ/855م، دفن في داره ببغداد. أنظر، الذّهبي:سيرأعلام النّبلاء، ج11، ص ص170،169.

(142)الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أبو عبد الله بن محمّد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن وائل الذّهلي الشّيباني، المروزي، ثمّ البغدادي ولد عام164هـ-781م، طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة، أعلم بفقه الحديث ومعانيه، دائم التّعوذّ من رأي الخوارج ومن البدع، يقول: لا يفلح من تعاطى الكلام بأنّ القرآن مخلوق، فضُرب في عهد الخليفة المعتصم، مات عام241هـ-861م.أنظر، الذّهبي: نفس المصدر، ص179.

(143)ابن كثير:مصدر سابق ، ص48.

(144)الجاحظ: مصدر سابق، ص169.

(145)الجاحظ: نفس المصدر، ص169.

(146)الجاحظ: نفس المصدر، ص168 .

(147)الجاحظ: نفس المصدر، ص169.

(148)كان الإمام أحمد إلى أن مات يثني على المعتصم، ويذكر فعله، ويترحّم عليه . أنظر، ابن العبراني: الإنباء، ص 105.

(149)هناك أراء منافية لما ذكر الجاحظ، قيل: وجّه المعتصم رجلا ينظر الضّرب والجراحات، ويعالجه، فنظر إلي الإمام أحمد بن حنبل وقال: والله لقد رأيت من ضُرِب ألف سوط، فما رأيت، أشدّ ضربا من هذا، ثمّ عالجه، وبقي أثر الضّرب بيّنا في ظهره إلى أن مات رضي الله عنه. أنظر، الدّميري: حياة الحيوان الكبرى، ج1، ص101.

(150)الجاحظ: مصدر سابق، ص170.

(151)ذكرالدّميري أنّ الإمام أحمد قال: فذهب عقلي، فما عقلت، إلاّ وأنا في حجرة مغلق عنّي، وكلّ ذلك وهو صائم، لم يفطر رضي الله عنه، وضرب ثمانيّة عشر سوطا، فلمّا كان في أثناء الضّرب، انحلّت وزرته، فهمهم بشفتيه، فخرجت يدان فربطتاها، فسئل عن ذلك بعد إطلاقه، فقال:قلت اللّهم إن كنت على الحقّ، فلا تفضحني". أنظر، الدّميري: مصدر سابق، ص101.

(152)الجاحظ:مصدر سابق، ص171.

(153)الدّميري: مصدر سابق، ص99.

(154)الدّميري:نفس المصدر، ص100.

(155)قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: "ثلاث من كنّ فيه من الولاّة، اضطلع بأمانته وأمره، إذا عدل في حكمه ولم يحتجّب دون غيره "، وأقام كتاب الله في القريب والبعيد. أنظر، الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص566.

(156)الجاحظ: نفس المصدر، ص570.

(157)تقول الأعاجم:"وما شيئ أضيع للمملكة، ولا أضيع للرّعيّة من صعوبة الحجّاب، ولا شيئ أهيب للرّعيّة من سهولة الحجّاب؛ لأنّ الرّعيّة إذا وثقت من الوالي سهولة الحجّاب، أحجمت عن الظّلم، وإذا وثقت منه بصعوبة الحجّاب، هجمت على الظّلم، وركب القويّ منهم الضّعيف، فخير خِلالِ السّلطان سهولة الحجّاب. أنظر، البيهقي: المحاسن والمساوئ، ج1، ص151.

(158)الخليفة موسى الهادي، أبومحمد بن موسى بن المهدي بن المنصور، أمه أم ولد إسمها الخيزران، ولد بالري عام147هـ/764م، بويع بالخلافة بعد أبيه المهدي بعهد منه، مكث فيها عاما وأشهر، كان فصيحا، مات عام170هـ/787م وأختلف في سبب موته. أنظر، السيوطي:مصدرسابق، ص219.

(159)الجاحظ:مصدر سابق، ص567.

(160)ابن قتيبة: الإمامة والسّياسة، ج1، ص219.

(161)أوصل حاجب إلى الخليفة هارون الرّشيد من أعرابي كتابا فيه أربعة أسطر، الأوّل:الضّرورة والأمل قاداني إليك الثّاني:العدم يمنع من الصّبر، الثّالث:الإنقلاب عنك بلا فائدة شماتة الأعداء، الرّابع:فإمّا نعم مثمرة وإمّا لامريحة، فلمّا وصل الكتاب إليه، قال:هذا رجل قد ساقته الحاجة، ووصلت إليه الفاقة، فليدخل، فدخل، فقال له:إرفع حاجتك وحويجاتك يا أعرابي، فقال الأعرابي:إنّ مع الحاجة حويجات، فقال له:إرفع حاجتك وحويجاتك، تُقض كلّها، قال الأعرابي:تأمر لي ياأمير المؤمنين بكلب أصيد به، فضحك الرّشيد، ثمّ قال له:قد أمرنا لك بكلب تصيد به، فقال:تأمر لي يا أمير المؤمنين بدابة أركبها، فقال له:قد أمرنا لك بدابّة، تركبها، فقال:تأمر لي يا أمير المؤمنين بجارية تطبخ لنا الصّيد وتطعمنا منه، فقال له:قد أمرنا لك بجاريتين؛ جارية تؤنسك وجارية تخدمك، فقال الأعرابي:لا بدّ لهؤلاء من دار يسكنونها، فقال له:قد أمرنا لك بدار، فقال الأعرابي : ياأميرالمؤمنين، يصيرون فيها عالّة على النّاس وعليّ كلالة، لا بدّ لهم من صنعة تقيهم، فقال له:قد أقطعنّاك مئة جُريب عامرة ومئة جريب غامرة. أنظر، ابن قتيبة: نفس المصدر، ص 220.

(162)"إذا كانت الدّولة في أول أمرها بدوية، كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من النّاس وسهولة الإذن فإذا رسّخ عزّه، وصار إلى الانفراد بنفسه عن النّاس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونه، لما يكثر حينئذ بحاشيته فيطلب الانفراد من العامّة ما استطاع، ويتّخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته، ويتّخذ حاجبا له عن النّاس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة". أنظر، ابن خلدون:المقدّمة، ص291.

(163)إنّ الحاجب أحد وجهي الملك، يعتبر عليه برأفته، ويلحقه ما كان في غلظته وفظاظته، فاتّخذ حاجبك سهل الطّبيعة، معروفا بالرأفة، مألوفا منه البرّ والرّحمة، وليكن جميل الهيئة حسن البسطة، ذا قصد في نيته وصالح أفعاله ومُرِّه، فليضع النّاس على مراتبهم، وليأذن لهم في تفاضل منازلهم، وليعط كلاّ بقسطه من وجهه، ويستعطف قلوب الجميع إليه، حتّى لا يغشى الباب أحد وهو يخاف، أن يقّصّر به عن مرتبته، ولا أن يمنع أحدا مرتبته، وليضع كلاً عندك على منزلته وتعهدّه فإن قصّر مقصّر قام بحسن خلافته، وتزيين أمره. أنظر، الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص571.

(164)الجاحظ: نفس المصدر، ص 514. وقيل:وقف عبد الله بن العبّاس بن الحسين العلوي على باب المأمون يوما، فنظر إليه الحاجب، ثمّ أطرق، فقال عبد الله لقوم معه، إنّه لو أذن لنا لدخلنا ولو صرفنا، لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلنا، فأمّا الفترة بعد النّظرة والتّوقف بعد التّعرف، فلا أفهمه، وانصرف، فبلغ المأمون كلامه، فصرف الحاجب وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب، وحجب بعض الهاشميّين، فرجع مغضبا، فرُدّ، فلم يرجع وقال: ليس بعد الحجّاب إلاّ العذاب. أنظر، النويري: نهاية الأرب، م3، ج6، ص90.